الحسين افقير

محاولة بقاء

رواية

دار تيراس للنشر والتوزيع
EDITIONS TIBRASSE

دار تسراس للنشر والتوزيع

BROUILLON

محاولة بقاء

دار تسراس للنشر والتوزيـع
ⵜⴰⵙⵔⴰⵙ ⵏ ⵜⵙⵓⴽⵔⵉ ⵜⴰⵏⵓⵓⵔⵉ
EDITIONS TISRASSE

الناشر: دار تِسراس للنّشر و التوزيع

البريد إلكتروني:

editiontisrasse@gmail.com

التوزيع

distributiontisrasse@gmail.com

الهاتف : 0528220198

الطّبعةُ الأولى 2020

حقوق النّشر و الطبع محفوظة ©

الكتـاب : محاولة بقاء/ رواية

الكـاتب : الحسين افقير

رقم الإيداع القانوني : 2019MO7555

ر.د.م.ك : 978-9954-9708-3-6

الطبعة : الأولى 2019

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمحُ بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نشره كاملاً أو جزء منه أو مقاطع، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بشكل من الأشكال.

الـحسيـن افـقـيـر

مـحـا ولـــة بـقـــا ء

رواية

دار تسراس للنشر

دار تسراس للنشر
والتوزيع
Editions Tisrasse
2020 ©

دار تسراس للنشر

منشورات دار تسراس للنشر و التوزيع

2020

يطلبُ هذا الإصدار من مكتبات دار تسراس للنّشر والتوزيع

والمكتبات المعتمدة.

أو عبر

البريد الالكتروني للدار : editiontisrasse@gmail.com

مصلحة التوزيع : distributiontisrasse@gmail.com

مأساتنا مأساة ناس
أبرياء

وحكاية يغلي بأسطرها
الشقاء

حملت إلى الآفاق رائحة
الدماء

وجريمتي كانت محاولة
البقاء

أنا ما اعتديت ولا اذخرتك
لاعتداء

هاشم رفاعي

شاعر مصري

(1959-1935)

دار شناس للنشر

الفصل الأول

ونفض الغبار عن يديه، بعد أن وارى جثمان أمه إلى مثواها الأخير.

ها هو وحيداً على الأرض لا أب ولا أم ولا أخ...

بأي قوة سيجابه الحياة؟

لا صنعة تعلمها منذ الصغر، ولا حرفة يتقنها (سوى ذكريات)، ولا يتذكر غير العذاب.

وماذا عساه أن يعمل... نشالاً... نصاباً... فهو ابن الخير، وترعرع في وسط خيرهم، يكفي شرهم، ولم يعرف الجوع إلَيْهِ سبيلاً... ولم يمد في حياته يداً طلباً للمعونة أو طمعاً في دراهم معدودة.

ولكن الدهر قاسٍ، والحياة صعبة، فكيف ستعطف عليه الحياة، رغم أنّه لا يعرف شيئاً...

بأي شيء، يا ترى سيلقى الحياة ومتاعبها ومصاعبها؟

أبوجهٍ متجهم كما وارى جثمان أمّه؟

يجب أن يعمل لكي ينقذ نفسه، لكن ما المخرج، وكيف سيبدأ؟

تلك أسئلة تدور في مخيلته.

مَاذَا... عمر بونظيف، اسمه الحقيقي... ولكن... هل اسمه سيهز العالم بقراراته؟

لا... وألف لا... أجوبة ترد على مسمعه.

وقد قرأ عدة كتب عن الحياة، ويتذكر قول الشاعر:

تعبٌ كلّها الحياة.....لكن ما العمل؟

أسئلة تُطرح في مخيّلته ولكن الإجابة عنها صعبة.

ولكنه هو واحد من الذينَ طُردوا من المدرسة، وأَلِفوا حياة المجون وشرب الخمر...

وسيتذكر أيام الطفولة والصِّبا بغمٍّ وحزن، وكيف كان يعيش في نعيم ظانًّا أن ذلك النعيم سيدوم .

الموت... آهٍ من الموت.

الموت فرّق الأب عن ابنه، والأم عن ابنها... إنّه الموت.

بأي وجه سيراكما، أيها الوالدان في مثواكما الأخير؟

ومتمنياً في قرارة نفسه اللّحاق بهما، خيراً له من استجداء الناس بِأَن يعطفوا عليه بكسرة خبز... حليب... دراهم.

(دلها دلّك ...عزها تعزك....)

مقولة طالما رددها أبوه قبل مماته.

يجب أن تُشَمِّرَ عن ساعديك، وتعمل في ورشات البناء كأقرانك... عمر، اعمل... أو تاجر في شيء ما، خيرٌ لك من مَدِّ اليد، ولكنك لم تعمل لموت أمك حساباً، ولكن الموت ينقضّ دون علم من الميت.

مَاذَا يعرف عن الحياة؟

استجمع قواك، وقاوم، واعمل، وليكن عملك من أجل بقائِك وعيشك.

تُرى، بأي وجه سيلقى الحياة؟ وكيف سيغوص في أعماقها ويذوب في متاهتها؟

كن رجلاً بمعنى الكلمة... كلام يدغدغ مسمعه منذ أن كان أبوه حيًّا.

لقد فقد الدعم وسند الأم .

- الله يرحمك، خدوج .
- ما أجمل الأيام الماضية!
- ولكن... ما الأمر؟

لم يبقَ له في الحياة سوى أصدقائه، أصدقاء الطفولة والمدرسة، كل واحد أين يوجد، هناك من التحق بسلك الجندية، كل واحد أين تفرقت به السبل، منهم من تعلم حرفة البناء، منهم من هاجر إلى أوروبا للعمل في الحقول والمزارع...

وما كاد يغادر المقبرة حَتّى بدأ المشيِّعون في تعزيته.

ومال إلى أُذُنه أحد أصدقائه:

- الصبر، الله يلهمك الصبر والسلوان.

وقال آخر:

- انتقلت إلى جوار ربها، إنها مع الأبرار لفي النعيم.

ولكن لشدّ ما أحزنه، وهو فقدُه أمَّه وحنانَها وساعدَها الذي كان يؤمّن له لقمة العيش، وما عليه إلا أن يتلقى قضاء الله بصبر وتجلد وعزيمة وإصرار.

إنهم يعزونه وذهنه شارد، لم تعد لديه بارقة أمل إلا الصبر على هذا الضياع الكبير.

عمر، سلّم أمرك إلى الله (را البكاء وراء الميت خسارة)، هكذا نبس أحد المشيّعين بلهجة العارف

وارتفعت حرارة التعازي، وفي لحظة وجد نفسه مطوَّقاً من جميع الجوانب بمجموعة من أصدقاء أبيه، وارتفعت أصوات التعازي من كل جهة.

- الله يصبرك.
- أعطى وأخذ.

- كانت المرحومة نعم المرأة والأم.

وهو ينظر وينقب في وجوه الناس.

دار شراس للنشر

الفصل الثاني

في صباح شمسٍ مشرقة، ترسل خيوطها الذهبية في اتجاه الرؤوس البشرية مسرعة في كل اتجاه، وبعد أن تسللت الشمس إلى غرفته استيقظ على وقع أشعتها متكسرة على زجاج النّافذة. لبس سرواله الأزرق وجاكتته السوداء وحذاءه الرمادي الطويل، ودلف خارج غرفته في اتجاه المقهى لتناول فطوره، دون أن يتذكر حوادث الأمس، ومتناسياً كل ما وقع من تشييع جنازة أمه، لم ينتحب كما فعل أمس.

دخل إلى المقهى طالباً قهوةً بحليب وحلوى، متناولاً فطوره المعتاد منذ سنوات غير عابئ بما ينتظره من مشقة الحياة.

لزم مجلسه في المقهى دون أن يتزحزح، مَادّاً بصره إلى الخارج، مُمْعِنَ النظر في رواد المقهى من أمثاله، وما أكثَر الفاشلين في مثل سِنِّه، بعيدين عن واقع مرير بفضل وجود آبائهم.

ينظر ويتذكر سارحاً بمخيلته في حياته الخاصة بعيداً عن متاعب الدنيا.

ولفحته نسمة باردة قادمة من خارج المقهى، فأفاق من أحلامه... وَرَدَّته إلى وعيه، مثوى الذكريات، والغرفة، والمدرسة، والأصدقاء، أين سيذهب؟ ملّ هذا، وأضناه التفكير.

الطفولة، أيام الصبا، وحنان الأم، متذكراً كل صغيرة وكبيرة حلوة ومرة. لبثَ في مكانه متسمّراً دون أن ينبس بكلمة، فدخل المقهى أحد أصدقائه القدامى الّذين كان يعرفهم، وسلم على عمر.

عمر متكلماً:

- نهار زين منين شفناك.
- أين كنت؟
- راك عارف، مع الخدمة.
- فين خدام؟
- في ورشة البناء.

عمر متسائلاً:

- أين توجد هذه الورشة؟ يجب أن أجد لي مكاناً للعمل.
- لماذا يا عمر... وأنت لا تحب أن تعمل؟

عمر عابساً:

- اصمت أحسن... اصمت...
- تكلم يا عمر، مَاذَا بك؟
- الوليدة ضاعت...
- متى؟
- البارح.
- أمس؟
- الله... ما كنت عارف أخويا عمر.

- هل كانت مريضة؟
- لا... موتة الله.

صديقه يواسيه جراء هذه الفجيعة:

- الله يصبرك خويا عمر، لم أعرف حَتّى كلمتني أَنت عنها.
- الأصدقاء جاءوا عندي، قدّموا لي العزاء.
- مع الخدمة أخويا عمر.
- البركة فراسك من جهة الوليدة، «كل نفس ذائقة الموت»؛ فهذه جملة تمتم بها صديقه عصام.

عمر متمتماً:

- كل شي غادي يموت.
- شيء واضح أخي عمر.

النادل يتجول برشاقته المعهودة بين طاولات المقهى، ماسحاً الطاولات وحاملاً كؤوساً فارغة في صينية مخصصة لهذا الغرض، حَتّى وصل إلى مجلسهم سائلاً صديقه:

- مَاذَا ستشرب؟

فرد عصام بسرعة:

- قهوة نص نص.

غاص عمر وصديقه في موضوع الموت، والحياة، والبقاء، والإيمان، والقضاء، والقدر، دون أَن يفقها شيئاً.

فخاطبه عمر:

- انسَ الموضوع وأعفني من هذا المصير.

فقال صديقه بصوت ينم عن النصح:

- يا عمر يجب أن تنسى، ما كتبه الله لا مهرب منه وأن تقنع بهذا القضاء، وما عليك إلا أن تبدأ صفحة جديدة من حياتك وأنا سأساعدك في البحث عن عمل.

كان صديق عمر في مثل سنه، في الثلاثينيات من عمره، قصير القامة، مكتنز الجسم، عريض المنكبين، ذا سحنة متحجرة، وأنف طويل. خرج من المدرسة بعد أن اجتاز الابتدائي، عمل في الأسواق حمالاً لصناديق الخضر، ومساعداً لبائع الملابس المستعملة، جرب جميع المهن، لم يستقر في واحدة منها، واستقر به المطاف في ورشة البناء، يعمل نظير سبعين درهماً في اليوم، وهو أجر يومي للعامل، وكيف أمكن له العيش؟

بدأت الساعة تدور في الواحدة بعد الظهر. عمر يقف إيذاناً بالذهاب. يتبعه صديقه، فقد حان وقت الغداء.

عمر متكلماً:

- يجب أَن نلتقي بعد العصر لتساعدني في البحث عن عمل.
- بعد العصر... ميعادنا.

وافترقا كلٌّ في طريقه.

* * *

اتجه عمر ناحية "سناك" تونسي، طالباً "بوكاديوس" ببطاطس مقلية، وتلاها بزجاجة مشروب غازي، ومسح فمه، وخرج في اتجاه غرفته المتواضعة، التي استأجرتها أمه قبل وفاتها، ولم يبق على تأدية أجرها الشهري سوى بضعة أيام، وسيقف رب الغرفة في وجه عمر... الوجيبة الكرائية يا عمر! وتخيلها في رأْسِه.

استلقى عمر على فراشه أملاً في النوم، حَتّى ما بعد العصر، لمقابلة صديقه عصام، دعك عينيه، والنوم ما زال لا يراود أجفانه، أخرج من جيب سرواله سيجارة وأشعلها وراح يدخن...

بدأ موعد مقابلة عمر وصديقه يقترب في مقهى أكادير، العصر قريب، خرج من غرفته قاصداً أقرب دكان، اشترى علكة لتزيح عنه رائحة التبغ من فمه، بَدَأَ يطوي الطريق برجليه الطويلتين في اتجاه المقهى، اخترق مدخل السوق الأسبوعي نحو الشارع، وتجنب عربات الخضر المصطفّة على مقربة منه، وانحدر ملاصقاً جنبه نحو حائط مدرسة الفارابي، ومسح عن رأْسِه بعض الغبار.

وجد نفسه في المقهى، فأخذ مجلسه المعتاد في انتظار عصام وقبل جلوسه بدقائقٍ ظهر صديقه عصام، وقد غسل وجهه، وسلم عليه بأحسن التحايا.

وقال عمر:

- يلاه لقيتني جلست...

وجلسا جنباً لجنب، وطلبا إبريق شاي صغير، ودخلا في صلب الموضوع، يتحدّثانِ عن العمل ومتاعبه: يجب أن تتحلى بالصبر، إذا أردت العيش، وأن تنصت لآراء الرؤساء، وتنصاع لأوامرهم، وإلا فلا مكان لك بينهم، إذا كنت عنيداً.

فراح عمر ينصت لصديقه، وكيفية التعامل مع رؤساء ورشة البناء: إذا أردت البقاء، هذه هي الوضعية فتقبل الوضع، فلا مكان للتمرد.

الفصل الثالث

عند الفجر قبيل بزوغ الشمس من وراء الشفق، خرج عمر من غرفته، ركب دراجته، وأدار دواستها بحركاتٍ من رجله، في اتجاه ورشة البناء، التي عرف مكان تواجدها، بعد أن حدد له صديقه عصام عنوانها. تقع هذه الورشة على بعد ستة كيلومترات من خارج المدينة، وهي ورشة كبيرة تضم مئات العمال، وعدداً كبيراً من شاحنات نقل الرمال والحصى...

في هذا الصباح الباكر، والشمس ما زالت لم ترسل خيوطها إيذاناً ببدء العمل، جلسوا جماعات، متحلّقين حول خيمة بوعزة بائع الشاي والحريرة، يتناولون فطورهم، بعضهم واقف، وآخرون جالسون على كراسي خشبية، ومنهم من لا يزال يقاوم أثر النوم الذي ما زال متمكناً منه، ولم يبقَ إلَّا نصف ساعة لبدء العمل. أزيز سيارة صاحب الورشة يُسمع من بعيد، وذلك علامة على وجوب استعدادهم، كي يشغل كل واحد منهم مكانه المخصص له.

وقفوا وقفة رجل واحد، بعد أن أدوا ثمن فطورهم، وتركوا دراجاتهم لدى بوعزة صاحب (كيطون) وتوجّهوا في اتجاه مستودع الآلات، كلٌّ بما يحمل في يديه: فأساً... بالةً.

كان عمر في هذه اللّحظة، يشعر بخيبة أمل تعتريه، وإحباط يصيبه لأنه لم تكن له دراية بهذه المهنة، ولم يشتغل فيها يوماً من الأيام، ولكن الظروف تأتي بها...

وكان يكره مهنة البنائين، وكانت نفسه تأبى عليه العمل، الانخراط في صفوف البنّائين، وكانت هذه الفكرة راسخةً في ذهنه، ولكن مَاذَا سيفعل، والعيش وأداء إيجار الغرفة هما من... يفرضان عليه حتماً أن يختار.

وما زالت أفكار وحوادث تمر في رأْسِه، بأن يكف عن العمل، وأن يرتد من حَيْثُ أتى، وشعر بضيق في نفسه.

وفي خضم ذَلِكَ توجه صديقه عصام إلى رئيس الورشة، وأخبره بِأَن شاباً يريد العمل في ورشته، وأقنعه بعد سيل من المدح في حقه، بِأَنه شاب يحب العمل، ولا يعرف غير العمل والأكل والنوم ولا شيء، فَسُرَّ رئيس الورشة بقدوم عمر، وطلب منه بطاقة التعريف الوطنية، حَتّى يتمكن من تدوين اسمه في سجل عمال الورشة، ودوّن تاريخ انضمامه للورشة، وبداية العمل، وقال له بلهجة آمرة:

- سير تخدم...

وانضم إلى فوج صديقه عصام، وفرح لأنه وجد من سيؤنسه في العمل، حَتّى لا يخيم عليه شبح الرتابة والفتور الذي يدب إلَيْهِ أحياناً، بيد أنّه

يتراخى في تأدية واجبه المتمثل في حفر أحد الأنفاق التي خصه بها المكلّف به، والذي لا يتوانى عن نهره:

- شد فأس مزيان... يلله عاد جديد.

عصام يدافع عن صديقه عمر:

- أشاف أول يوم عندوا في الخدمة سايس معه.

الرئيس المُكَلَّف بفوج عمر غاضباً:

- ديها في سوق راسك مالك محامي ديالو...

عصام مُحْنياً رأْسَه:

- سمح ليا أشاف.
- ديها في خدمتك.

واقترب المكلّف من عمر نازعاً منه الفأس، فهوى به يحفر الأرض مرتين، وموبّخاً عمر وصارخاً في وجهه:

- انظر كيف تقبض الفأس.

ورمى المكلّف الفأس في اتجاهه صارخاً:

- خد تعلم تشد الفأس.

انقض عمر على الفأس، وانكب على الحفر ناسياً نصائح المكلّف، وصراخه في وجهه، ومنهمكاً في العمل. رغم أن الأعين تتابعه، أعين العمال بين حين وآخر، كانت تنبعث ضحكات من العمال، ونكات تحاك عنه، بينما هو يغلي من الداخل، ويريد أن يقبض على أحدهم، ويهوي عليه بفأسه، يهشم رأْسَهُ ليكون عبرة لمن أراد أن يستهزئ به، ولكنه مقيد بنسخة من بطاقته الوطنية لدى المكلّف. اسمه عُرف في الورشة، ولكن مَاذَا يضيره ويربطه بهم سوى لقمة العيش يكسبها بعرق جبينه، ويقاسمهم العمل ورابطته، وما عليه إلا أَن يصمت فليقولوا ما يقولون، وهمه الوحيد هو العمل لضمان لقمة العيش بسلام ودون تمييز.

لكن ما الحيلة؟ يجب أن تعيش بكدك وجهدك، ولا تبالي بشماتة المحيطين بك، يريدون أن ينغصوا عليك جوك، ولا تترك منفذاً للريح يعصف بك، وكن حَذِرًا.

في عمله، تجسَّد له معنى الاحتقار والدونية، أنّه يكافح من أَجْل البقاء، ومن عينيه يرى الذل والهوان وإهانة المكلّف له، ويرى أصدقاء الدراسة الذين أتموا دراستهم وحصلوا على شواهد عليا، وقد عينوا في وظائف تليق بمكانتهم، فإذا التقى بهم كل صباح ببذلاتهم وربطات عنقهم، أحسّ بالنقص في شخصيته، فيُضمِر لهم العداء في نفسه، وكم تمنى أن تقع معجزة لتنقذه من هذه الوضعية غير الراضي عنها، وأنه لمن المحزن أَن

تكون هكذا يا عمر. تصبّر، تجلّد... ولا تعاند الحظ إِذَا تجهم، اصبر وما صبرك إلا على الله، وتوكل على الله، لا عليك من هذه الوساوس، اذكر الله فبذكر الله تطمئن القلوب، ولا تدَع اليأس يغلب عليك، وادفع عنك تلك الأفكار.

دار نشر اس للنشر

الفصل الرابع

أسابيع مرت على عمله في ورشة البناء، وهو لا يصدق صبره على تلك الأسابيع بساعاتها ودقائقها، متذكراً دخوله، وكيف اجتاز المراحل الأولى من العمل بسرعة، والمحن التي مرت عليه، ناسياً مضايقات العمال له في المرة الأولى، والنكات التي حيكت ضده، والقهقهات التي كانت تصدر منهم. نسي كل شيء... لم يعد يبالي بأحد، حَتّى إن العمال ألفوه وتفهموا وضعه.

وبعد أن انتهى من عمله، اتجه صوب المقهى للراحة، وطلباً للترويح عن النفس، جلس إلى جانب صديقه عصام، الذي لا يفارقه كظله، وطلبا قهوة سوداء لكل منهما، وقبل أن يقدم النادل طلبهما، جاء الحسين "البرد"، وهو رجل ستيني في عمره، يعمل بواباً لأحد البنوك، وسلّما عليه، وجر كرسياً وجلس الى جانبهما.

وتساءل الحسين:

- كي داير مع شي خدمة، اسي عمر؟

ورد عمر على تساؤل الحسين:

- الحمد لله، الخدمة غادة مزيانة.

تكلم الحسين مشجعاً عمر:

- ما تفرطش في الخدمة، رزقك هناك.

ورمقه صديقه عصام قائلاً:

- ربما هذه المهنة ستكون سبباً من أسباب رزقه.

وعمر قاطعاً كلامه:

- الأرزاق بيد الله.
- فعلاً كل شيء بيد الله؛ تمتم عصام.

ولكن أمنية عمر مُنْذُ صغره، كانت الهجرة نحو الديار الأوروبية، وهي أمنية أحب أن تتحقق. ولكن من أمثاله، كيف ستتحقق لهم هذه الأماني؟ الهجرة تتطلب المال، ولم يترك له أبواه شيئاً يرثه عنهما، بل تركا له الشقاء، والتعاسة، وشهرين من الكراء لم يؤدِّهما.

أشياء طالما أحبها، يعيش حياته في نظره مطارداً بالفقر والجوع، ومتوجساً من المستقبل، وخائفاً من أن يطردوه يوماً ما من الورشة.

بانت على ثَغْر عمر ابتسامة كأنه راضٍ عن هذا العمل الشريف، وتساءل:

- الخدمة شكون لقاها في هذا الوقت...

قاطعه الحسين قائلاً:

- الخدمة موجودة غير لي ما باغيش يخدم...

وتدخل عصام:

- الخدمة خاصها مواليها، رجال بحالي وبحال عمر...

جال الحسين بنظره بين وجهيهما وقال:

- عندك الحق عصام...
- الخدمة خاصها رجال...

انظر إلى شباب اليوم، لا يقدرون على العمل، ولا توفير ثمن ما يشترون به حاجياتهم من سجائر... وأكل... لقد اعتمدوا على آبائهم، ولكن إلى أي حد سيتكلون عليهم؟ فليعلموا أنهم، ما داموا على الأرض، وإلا وهم في شقاء وضنك.

وقاطعه الحسين قائلاً:

- الرجل لا يجب أن يتكل على أبويه...
- يجب أن يعمل بذراعيه.

فأيده عصام بحركة من يده ومتكلماً:

- الرجل هو من يعمل بذراعيه...

وأدلى الحسين بمثل شعبي:

- «خدم برباعية وتحاسب مع البارك».
- العمل ليس عيباً...
- العيب هو الجلوس...

كان عمر يسمع، ويفكر، ويشارك بآرائه حول قيمة العمل، واقتنع بفكرة أن العمل عبادة، وأن الإنسان ما خُلق إلا للعمل والعبادة، ولم يخلقنا الله عزّ وجلّ للراحة، بل خلقنا لهدفٍ معين نصبو إلَيْهِ.

وبينما كان الحسين يرشف من كأس قهوته السوداء، حانت منه نظرة إلى جليسه، فصدرت عنه حركة، دفع من خلالها الطاولة التي كانت قريبة من رجله، فغير بها وضعية جلوسه، ووضع كَأْسَ قهوته فوق الطاولة وهو يقول:

- الصحة هي كل شيء.
- تخطاك الصحة ما يبقى يعرفك واحد.
- وتحدثَ عصام:
- الصحة رأس المال.

وعلق الحسين:

- الصحة كنز الإنسان.
- ما عندك صحة فهاد الوقت ياكلوك، راني دوزت كثر منكم وشفت...

الحسين "البرد"، عساس، أو عسكري كما يسميه أصدقاؤه نظراً إلى خدمته الطويلة في سلك الجندية. وقد خاض اشتباكات ضد جبهة البوليساريو عدة مرات، وخرج منها سالماً، وبعد تقاعده، سافر إلى ليبيا، وعمل هناك حوالي خمس سنوات حارساً لإحدى اللجان الشعبية في طرابلس، لكنه لم تعجبه الأجواء هناك نظراً لضعف الأجر الذي يتقاضاه، والذي لا يكفيه لسد حاجات السفر إِلَى المغرب وإرسال ما يكفي لابنائه للعيش. رجع إلى بلاده، وعمل في ورشات البناء، والإنعاش، حَتّى استقر به المقام بواباً لأحد البنوك، يعمل من الثامنة صباحاً حَتّى الرابعة مساءً، يذهب إلى منزله، يتناول ما يجده، وأحياناً لا يجد شيئا، ويخرج متجهاً صوب المقهى المعتاد أن يجلس فيه، وهناك يقتعد كرسياً في انتظار بعض الأصدقاء في هذا المقهى، الذي ألف أن يبدي فيه آراءه، ويفكر في مصاريف المنزل، وحاجياته من خضر ولحم. يتألم أحياناً

ويحمد الله على نعمه. فقد اعتاد من سنوات أن يأتي إليه، ومنه كان يستمد ثقافته الاجتماعية، ومن أفواه أصدقائه الذين استقر بهم المقام في وظائف ذات أجر مرتفع ودخل أكبر منه. وكان يحس بِالانتعاش حين يجلسان بجانبه، ويكلمانه في مواضيع الحياة وغلاء الأسعار إلى غير ذَلِكَ. وكان كثير الكلام، ما إن يحل بمكان ما حَتّى يملأه ثرثرة وضجيجاً، يتكلم في مواضيع تافهة، ليس لها قيمة، مما جعل أصدقاءه يطلقون عليه لقب "البرد"؛ الحسين البرد.

لقب "البرد" الذي أطلقه عليه أصدقاؤه له دلالة خاصة، لكثرة كلامه وثرثرته المعهودة، التي لا يحتملها بعض رواد المقهى، الذي اعتاد أن يجلس فيه. وأحياناً بعض الأصدقاء ممن يجلس معهم يتركونه يتكلم، ولكن كلامه يضيع في الهواء، لأن جليسه لا ينصت إلَيْهِ، يفكر في مشكل ما، ويريد أن يروّح عن نفسه، فيصطدم بـ"البرد" الذي لا يكف عن الكلام، وفي قدرته أن يتكلم دون أن يتعب. ومرات قالوا له: شارك في مسابقة من سيحطم الرقم القياسي في التكلم لأيام، وأقسموا له بأغلظ الأيمان أنّه سيكون من الفائزين، وسيدخل موسوعة "غينيس" للأرقام القياسية، وسيرفع اسم بلده عالياً، وخصوصاً مدينته بنسليمان، وسيجعلها تقارع المدن العالمية، ومن خلال شهرته، سيتمكن من التعريف بها وبمآثرها السياحية وبقريته (عين لقصب). وراح يردد بِأَنه سيشارك يوماً ما، وسيرونه على الشاشة، ولكن في خياله، ظاناً منه بِأَن الحظ سيبتسم له، وهو في هذا السن، وفي عقده السادس، بِأَن كل شيء

ممكن. وذكروا له بعض أصدقائه من الأساتذة، أن في مثل هذا السن يصل الإنسان إلى مرتبة الكمال، وأعطوه أَمْثِلَة على ذَلِكَ من كتّاب وأبطال في مثل سنه حققوا عدة إنجازات.

ولكن مَاذَا يعنيهم أمره؟ وعاداته هي الكلام ثم الكلام، فليشربوا البحر ولينفجروا، أحبوه أم كرهوه، لا شغل لهم سوى فضح عيوب الناس! هكذا نطق. الجميع يتكلمون، وَلِمَاذَا يتهمونني بكثرة الكلام؟ دفاعاً عن نفسه.

والويل ثم الويل لمن سولت له نفسه يوماً ما أَن يناديه بلقبه "البرد"، فذَاكَ يوم حساب وغضب، فإنه يزبد ويسب، ويلعن ويضرب بكل ما يجد أمامه... حجراً أو كأساً، ويطارد من أحرجه بهذا اللقب حَتّى داخل منزله، ولن يتنازل حَتّى يترك علامة في رأْسِه، ويشفي غليله بالضرب والسب.

الفصل الخامس

في الصباح الباكر، تسري نسمات برد قارصة، وتدب الحياة من جديد، بيْدَ أن المقاهي أول من يفتح، وتليها الدكاكين، وتكون حركة السيارات قد بدأت تكثر، والشارع يشهد حركة تلاميذ ذاهبين إِلَى المدرسة أزواجاً وأفراداً وثلاثاً ورباعاً، وكان عمر قد ذَهَبَ إلى عمله، وأصبحت هذه عادة متأصلة فيه مُنْذُ أن اشتغل، ولم تعد الأيام عنده ثقيلة كأيام البطالة، ورغم كل شيء فهو يشتغل بقوته وبعرق جبينه.

كانت ورشة البناء قد غصت بالبنائين، وشاحنات نقل الرمال والأسمنت متراصة، وقد غُطيت بغطاء كبير في انتظار إفراغها على يد العمال، وكان عمر قد ركن دراجته الهوائية في مستودع الورشة، وبدأ بجانبه صديقه عصام الذي ينتمي إلى فوجه.

فبدأ حديثه بسلام:

- صباح الخير، عمر...
- كيف أصبحت، عمر؟

رَدَّ بصوت متثائب:

- بخير...
- الحال بارد اليوم عصام؛ هكذا علق عمر.

فحدجه بلهجة الأمر:

- تشجع، عمر، حيد منك العكز.

- العكز هداك، ماشي البرد.

فانتفض عمر، رافعاً يديه ومحركاً رجليه في حركات تسخينية إيذاناً ببدء العمل.

وتمتم صديقه عصام:

- كتسخن عمر...

ارتفع صوت المكلّف بالورشة، وانفتح باب الشاحنة، وبدأ العمال في إنزال أكياس الأسمنت، وتعالت أصوات، وتداخلت أقدام، وارتفعت أيادٍ، وجباه تقطر عرقاً، وتسيل على شكل خطوط، وتتجمع على أكتاف تعطي للأجساد بريقها الذي ينعكس على صدور بعضهم على ضوء أشعة الشمس. وعملية إنزال أكياس الأسمنت من الشاحنات لا يتم التمييز فيها بين عمال شباب ورجال، بل الكل يشارك في إنزال الأكياس، في هرج وضجيج وضوضاء، وتختلط فيها ضحكات ونكات، ويصطدم البعض بالبعض، وينزلق البعض ويتدافعون. وعادة ما يتمزق كيس من الأسمنت بفعل سرعة الحامل الذي ينشب أظافره فيه، ويبدأ صراخ المكلّف بالورشة بالسب، ناهراً بقسوة وصائحاً:

- من الأحسن أن نغلق الورشة إذا بقينا على هذا الحال...

وما على حامل الأكياس إلَّا أَن يحني رأْسَه ويتمم عمله.

وبعدَ الانتهاء من عملية إفراغ الشاحنات، يسود الورشة شيء من النظام، وينقسم العمال إلى مجموعات، إذ تذهب كل مجموعة إلى مكانها المخصص، مجموعة تخلط الأسمنت، ومجموعة تحفر الأرض، وأخرى

تفرغ الأكياس من محتواها، وكلٌّ ينصرف إلى تأدية واجبه على أكمل وجه.

هذه هي الأدوار التي يؤديها عمال ورشة البناء، تكون متكاملة ومن دون نقص، ولكنها تعطي لكل واحد دوره ومكانته في الورشة، إِذْ يوجد الرئيس، والمُكَلَّف، والشاف، والكابران، حسب تصنيف سلم العمال. ومن الشروط المفروضة على العمال المقهورين، توقع معهم الورشة عقداً يمتد لنصف شهر، ثم يطردوا ويستبدلوا، بعمال جدد، حَتّى لا يثيروا لها القلاقل والاضرابات. ومن الأسوأ أن الورشة لا تصرف رواتبهم في الوقت المحدد، إِذ تتأخر في صرفها ثلاثة أيام أو أَكْثَرَ، لأنها تصر على أن يبقوا تحت رهنها، وخوفًا من أن يفرّ منها العمال حين يحين وقت صرف رواتبهم، اتبعت هذه السياسة.

وكان عمر وصديقه عصام، وآخرون من أمثالهم، يمثلون طبقة العمال المغلوبة على أمرها، ويمثلون أكثرية من يمزجون الأسمنت ويحضرون الأساس، ويقومون بالأعمال التي تناسب مستواهم.

بينما المكلّف والكابران دورهما هو نهر العمال وردعهم، وإعطاء الأوامر لهم: احمل ذَاكَ... تحرك يا كلب... خلط هذه... حوّل هذه... وينظرون إليهم بنوع من التكبر والاستعلاء والعجرفة، ويسبون من يتهاون أو يقصر في عمله. بيد أن عمر وبعضاً من أصدقائه يغشون، وكان عمر، من عادته، إذا أمره المكلّف بحمل رمال في "برويطة"، يذهب

متثاقلاً ويضيع بعضاً من الوقت، يظل رابضاً في المستودع يثرثر مع حارس "با المعطي" فينهره با المعطي:

- سير خوي بعدا هاديك برويطة وارجع...

فيدفع البرويطة متظاهراً بجد وحزم، فيراه المكلّف فيغمض عينيه متظاهراً بتدوين شيء ما، لأنه ولا شك، أَن وصية الحسين العسكري وتوسطه هو ما جعل المكلّف لا ينهره، إذ أوصى الحسينُ المكلّفَ بعمر أن يبتعد عنه وأنه يتيم الأبوين.

كان المُكَلَّف يأمره بحمل الرمال في البرويطة رأفة به، أو عملاً بنصيحة الحسين العسكري، رغم ما تعتريها من صعوبات، ولكن عمر يقبل هذه المهمة الموكلة إلَيْهِ من قبل المُكَلَّف، يرى فيها هرباً من "تخلاط العجنة"، وحفر الساس، أو تغيير "مادريات"... ويجد فيها راحته بين خطف دقائق، واستراحة في المستودع، والذهاب إلى الصنبور لشرب الماء، وفرصة لمسح رأْسه من العرق المتصبب. كانت هذه هي عادته مُنْذُ تعيين هذا المُكَلَّف الجديد صديق الحسين العسكري الذي أوصاه بعمر وأن يشفق عليه.

يظل عمر هكذا، يدفع برويطة محملة برمال أو حصى من الصباح حَتّى وقت انتهاء العمل، وعليه أن يكون حذراً من رئيس الورشة، الذي يتجول بين العمال، ويراقب كيف تسير الأعمال، ويفاجئ عاملاً أو عاملين يتحدثان فينهرهما، ويصدر أوامر للمُكَلَّف بِأَن يتمموا عملية البناء في أقرب وقت. وكان عمر يعرف الوقت المناسب الذي يتجول فيه رئيس الورشة بين العمال، فينضبط، فيضرب به رئيس الورشة مثال

العامل الذي يكد ويجتهد؛ أمامك يا رئيس ولكن راقب وراقب، حَتّى تتمكن من ضبطه وهو يتحدث مع الحارس با المعطي.

وعند اقتراب موعد تناول الغداء، يذهب الجميع لغسل أيديهم، ويزيلون عنها آثار الأسمنت والرمل، فيتجهون صوب مستودع الورشة، يخرجون من محافظهم ما حملوه من أكل بسيط، عبارة عن خبز وشاي مصبوب في قناني بلاستيكية، وقليل من عشاء الأمس، ويتحلق بعضهم حول بائع اللوبيا والشاي، يتناولون ذَلِكَ، بعضهم يقف، والآخر يفترش الأرض، ومنهم من يقتعد كرسياً، أو يجلس على حجارة كبيرة معدة خصيصاً مقاعد للزبائن. لا تسمع غير طقطقة المضغ والأكل، و"با العربي" بائع اللوبيا يصيح بأعلى صوته: من يريد شاياً ساخناً؟ ومساعده حمو يمسح صحوناً فارغة في دلو كبير، ويغسل كؤوس الشاي، ويزيل عنها آثار أيادي العمال المليئة بآثار الأسمنت والتراب، ويلبي طلبات عمال مبتعدين عن الخيمة المضروبة قرب الورشة. منهم من يقترض الأكل عند با العربي حَتّى نهاية الأسبوع، يدوّن ثمن المأكولات في دفتر صغير واسم الزبون، فيظل العمال بعد الأكل يستريحون في انتظار بدء العمل.

كان عمر في حاجة ماسة إلى هذا الوقت للاستراحة، رغم أنّه لم يكن يقوم بعمل شاق يتطلب منه أخذ قسط من الراحة، ويجدها فرصة للتحدث إلى صديقه عصام قائلاً:

- كيف داير مع الخدمة، عصام، فهاد صباح؟

يرد عليه عصام بفم ممتلئ:

- عندك زهر، عمر كيعطيك شاف تعمر برويطة.

وتزحزح عمر من مكانه قائلاً:

- معرفة كتنفع، با الحسين عسكري تكلم مع المُكَلَّف عني.
- بصحتك، عمر، عاطيها للراحة أو سليت.
- مالك حسدتيني، عصام؟ ما بقى لينا والو، وسيطردوننا.
- إيه عندك الحق، عمر.
- طالعة غير لهادوك المرسمين.

لقد أصبح عمر وصديقه عصام من جماعة المتسابقين بالدراجات، وما إن ينتهوا من العمل، حَتّى ترى كوكبة من العمال متسابقين بدراجاتهم الهوائية متجهين إلى منازلهم، التي تبتعد عن ورشة البناء بنحو ستة كيلومترات، حَيْثُ تتراءى لك أسراب من العمال في كل اتجاه إلى منازلهم، يصلون وقد أنهكهم تعب العمل، ولا تستمر سباقاتهم دائماً، إذ بمجرد انتهاء العقد، يبحثون في سباق ثانٍ عن عمل جديد. أما الرسميون فيستمرون طول فصول السنة، أما العاديون من أمثال عمر فلا غالب إِلَّا الله.

الفصل السادس

لقد أتعبه العمل اليوم، وأحس بالاختناق داخل الورشة التي استُبدل رئيسها، فجأةً ودون سابق إنذار، برئيس جديد صارم، ومما حدا به إلى ذلك أن غير المُكَلَّفين القدامى بمُكَلَّفين جدد، وعلى وجوههم الحزم والصرامة، لا يعرفون التهاون، وأحس عمر بضيق شديد وبالحسرة، فهو كان يحس بالراحة قبل تغيير المُكَلَّف، وهذا اليوم اعتبره عمر من أيامه السوداء.

مُكَلَّف جديد.. أسبوع واحد وينتهي عقد عمر في العمل.

فجمعهم رئيس الورشة، وخطب فيهم: من اليوم، أَنَا رئيس الورشة، ومن ضبطته متهاونا او متكاسلا فالويل له، ثم الويل. ثم راح يعدد حقوق العامل وواجباته تجاه الورشة، وكيف أن الأعمال التي يجب إنجازها لم تنتهِ في وقتها، وأن العمل في هذه الورشة يسير ببطء نتيجة تهاونكم وتهاون المُكَلَّفين المطرودين، وصاح صارخا:

- واجب عليكم أن تتموا عمليات البناء في الوقت المحدد.
- الناس تنتظر انتهاء البناء.
- الزبائن تنتظر أن تتسلم شققها.
- أصبحوا لا يضعون ثقتهم فينا بسبب تهاونكم أيها الكسالى.

ورد الرئيس بحزم:

- لا بد من انتهاء الأشغال في موعدها المحدد.

وصرخ بصوتٍ أجش:

- فليذهب كل واحد إلى مكانه..

وساد الورشة الصمت، وعمها النظام، وأصبح العمال يجتهدون بكل قوتهم في إتمام الأشغال لإقناع الرئيس الجديد بعملهم، حَتّى يتركهم ولا يظل بينهم يراقب أوضاعهم.

وعلق عصام وهو من فوج عمر:

- شتي هاد الخدامة كيبغيو غير زيار..

ورد عامل آخر:

- هادوا هما الخدامة..

وتساءل عمر:

- إلى متى سيبقى هذا الرئيس يراقبنا؟

فرد عليه صديقه عصام:

- هذا هو العمل الحقيقي، عمر..

وقاطعه عمر:

- مابقيناش فيك، عصام نبقاو معصورين بحال هكذا..

فقال عصام متهكما:

- تا أَنت عمر كنتي عاطيها لسليت أو تضراك..
- يلله، اليوم لي عندو صح يبان..

ومنذ ذلك اليوم، أصبح العمال لا يعرفون للراحة سبيلا إلا عند اقتراب موعد تناول الغداء أو انتهاء العمل، لا يستريحون في ظل هطول الأمطار، وما عليهم إلا إتمام المشروع السكني في وقته المحدد.

وضاق العمال ذرعا بمضايقات رئيس الورشة الجديد وسبابه لهم:

- سربيو البهايم .... تحركو..
- نبقاو حاضينكم..
- هادي ماشي خدمة عندكم..

وما دام الأمر بيده والأوامر تصدر منه، فما عليهم إلا أن ينفذوها، فهذه لقمة العيش، ولا يجب أن يفرطوا فيها، فليعلموا: إن عارض عامل أوامره أو تحداه فمصيره الطرد والتشرد، فليطبقوا أوامره بالحرف، فليتحاشوه بالعمل وإتمام المشروع في وقته، وليستريحوا من رؤية وجهه.

أما رئيس الورشة الجديد، فذو وجه مستدير مكمش، وعينين بارزتين متيقظتان تتدلى منهما شفرات العين، وكتلة بشرية ضخمة، يرتدي بذلة في حجمه، وربطة عنق تصطدم ببطنه البرميلي، وصدر منفوخ، ورأس أصلع، وقصير القامة، لا يعطي أوامره حَتّى يكاد يغمى عليه، وحينما يصرخ في وجه أحد العمال، تنتفخ أوداجه، فتحتقن بالدم، فيسرع المُكَلَّفون بالعمال لتهدئته ويتوعدون من أغضبه بالطرد مقدمين له كوب ماء. فهو لا يتسامح حين يضبط واحدا منهم يتحدث أو يشرب كَأْسَ ماء، فينهال عليه بالسب:

- يا الحمار جينا نتحدتوا هنا..
- سمح ليا، شاف..
- بغيت غير نشرب..
- يلله، تحرك لخدمتك، الكلب..

فإذا أنذر عاملا وتم ضبطه مرة أخرى، فلا يلتمس له العذر ولا ينال من التماسه إلا السب والقذف، ولا يجدي التماسه له نفعا، ومصيره النهائي هو الطرد في انتظار تقاضي أجره عن الأيام التي عمل فيها.

واستمر رئيس الورشة الجديد في تعجرفه مع العمال، ومراقبته الزائدة لهم، وفظاظته المعهودة معهم، التي لم يستسغها البعض منهم، فأصبحوا يدخلون معه في ملاسنات حَتّى تم طردهم، وعلق أحدهم:

- تال مال رزق فيدك..

- رزق بيد الله..
- سير داوي راسك..
- حول الله منزل عليك المرض..

وكان آخر من دخل معه في ملاسنات كلامية، امتدت إلى الضرب والسب هو الجيلالي صاحب السحنة القروية، لا يعرف الخوف إلَيْهِ سبيلا، وقد ضربه ببالة على ظهره، وأدمى فاه بلكمة قوية، سقطت على إثرها سنٌّ كبيرة، ففرقوهم فأعطوا الجيلالي فرصة لكي يفرّ ، وينجو من المُكَلَّفين وحراس الورشة ذوي البنية القوية.

الفصل السابع

ما إن انتهوا من العمل حَتّى خرجوا مجموعاتٍ، يتقدمهم عمر، وتوقفوا في الخلاء وتحلقوا حول عمر يخطب فيهم:

- اسمعوا، من اليوم ما علينا إلا العمل، وعند اقتراب تسلُّم الراتب الأسبوعي، فليذهب كل واحد منا لحال سبيله، الخدمة موجودة.
- تخلصوا، كل واحد يمشي فحالو.
- اسمعوني، بلي بغيت نقول ليكم بلي أرزاق بيد الله.
- أو لا تبقاو تسمعوا سبان على صباح.
- واش ما عندكمش نفس؟
- انظروا إلى الجيلالي، مَاذَا قال له آخر مرة، حين سبَّه ورد عليه. لم يخف منه الجيلالي لأن الجيلالي راجل، أو زايدون نفسه خايبة، أو لازم تكونوا بحالو..
- مالكوم ما عندكم نفس..

فبدأت تسري خطابات عمر في أبدانهم، وقد وجدوا من يتحكم في حركاتهم، ويشجعهم على خلق البلبلة وافتعال المشاكل داخل الورشة، منهم من اقتنع بأفكار عمر، ومنهم من لم يقتنع، بحكم الأبناء والزوجة

والكراء ومطالب الحياة الكثيرة، والمسؤوليةٍ الملقاةٍ على عاتقهم، وخوفًا من التشرد والضياع، فالوقت صعب.

فبدأوا ينصرفون، معلقين على أقوال عمر وخطاباته الحماسية التي تثيرهم، وتزرع فيهم روح إنسانٍ مهدورة الكرامة والشرف.

وقد أطبق الليل عليهم أجفانه، وهم في طريقهم إلى منازلهم، بين مؤيدٍ ومعارضٍ لأفكار عمر.

وفي خضم ذَلِكَ، راح عمر يدوس دراجته برجلين متهالكتين، وصديقه عصام بجانبه بدراجته، مخاطبًا إياه بقوله:

- تبارك الله على سي عمر.
- راك زعيم مع راسك.
- قل لي منين جبتي هاد الزعامة؟ مخاطبًا عمر.
- فرد عليه عمر:
- نفيقوا الخدامة شوية، بغيتهم بقاو ناعسين..
- راك شتي هاداك بوكرش كيسب فيهم على والو..

هكذا ابتسم عمر، وراح يتحدث شاكرًا الجيلالي وما قام به، حين سبَّ رئيس الورشة، ويمدحه في غيابه، وهو لا يعرفه، وقد عرفه من خلال

العمل الذي يجمعهم، ومنذُ ذلك اليوم لم يرَه، والتفت إلى جانب عصام قائلًا:

- شتي رجال كي دايرين..
- هادا غير سبو هاداك بوكرش، شوف أش دار ليه.
- وعلق عصام:
- راجل هاداك جيلالي..
- لقد أعجبني في ذَاكَ بوكرش..

فرفع عمر رأسه في الظلام ناظرًا إلى السماء، والتفت نحو صديقه برأسه متكلمًا:

- الليل هذا، والظلام يلف المكان..

ولكن عصام كان مشغول بالوصول إلى منزله، وقد أنهكه الجوع والتعب، ولم ينبس بكلمة، حَتّى اقترب كل واحد منهما من منزله، وتواعدا على أمل اللقاء غدًا في العمل.

واتجه عمر إلى غرفته بعدما ودّع صديقه عصام، ومدح في مخيلته الجيلالي العروبي، وما قام به من رد على رئيس الورشة الجديد، واعتبره عمر في نفسه رجلًا يُحتذى به، ويُضرب به المثل في الرجولة، وتمتم:

- الله يعطيك العز، الجيلالي..

* * *

كان جيلالي العروبي ذا سحنة قروية، عريض المنكبين، ذا صوت أجش، قوي البنية واللكمة، عنده اللكمة أسرع من الكلمة، لا يعرف معنى الحوار، غير متزوج، يعمل في هذه الورشة مُنْذُ ثلاثة أشهر، لم يقم بأي فعل شنيع في تلك الفترة، حَتّى تم تعيين رئيس جديد للورشة، وبعد أن قام رئيس الورشة بجولة مفاجئة، ضبط جيلالي وهو يتحدث مع أحد العمال، فسبَّه بشتى قواميس السب والشتم، ولم يستسغ الجيلالي هذا السب، واعتبره إهانة في حقه، فما كان منه إِلَّا أَن ضربه على ظهره ببالة، وانهال عليه بلكمات متتابعة حَتّى أدمى فاه.

وتسلق سور الورشة وفرَّ، وتمت مطاردته من طرف المكلفين وحرّاس الورشة، ولكن لم يعثروا له على أثر، وسجلت شكاية لدى الأمن ضده.

الفصل الثامن

سرى تحريض عمر في أبدان العمال من خلال خطاباته الحماسية التي كان يبثها فيهم، وبدأت تسري في عروقهم لتفريغ كبتهم وحقدهم الدفين تجاه رئيس الورشة الجديد الذي لا يحبونه، لأنه يتفانى في العمل لا غير. هذا هو سبب كرههم له.

وبدأت رغبتهم تتجسد من خلال عنادهم وملاسناتهم معه بشتى أنواع السباب، بحيث بدأوا يحيكون ضده النكات حين يقترب منهم، ويتغامزون فيما بينهم.

تقع ورشة البناء على بُعد نحو ستة كيلومترات من المدينة، وكانت مثار جلبة وضجيج لا ينقطع في النهار، بناؤون كثيرون، وشاحنات لحمل الرمال والحصى، وآلات خلط العجنة ومواد البناء متراصة في مستودعها الكبير، وسيل من الشاحنات تفرغ حمولتها، وعدد من المكلفين وأعوانِ رئيس الورشة الذين يظلون يراقبون البنائين، ويمدونهم بمعلومات الخلط... أو الحمل.. وصب الماء..

أوراق وتصاميم للبناء تنتقل من يد رئيس الورشة إلى المُكَلَّفين، الذين يفتون فيها: بإعطاء أوامرهم.. ارفع جدارًا من هناك.. اقتلع بابًا...

فهي ورشة كبيرة، وتقوم ببناء مشروعات سكنية لذوي الدخل المحدود، ولا يمر يومٌ فيها دون أن تشهد طرد بنّاء، وكان من جملتهم الجيلالي وعمالٌ آخرون.

لم يقع مثل هذا الطرد في تاريخ الورشة أبدًا، إلا بمجرد تعيين هذا الرئيس الذي بَدَأَ يراقب العمال بعينيه، غير مكتفٍ بأعوانه المُكَلَّفين، بسبب بطء سير العمل في الورشة التي يجب أن تنتهي أشغالها في وقتها المحدد، والعمال لا يعنيهم انتهاء الأشغال في وقتها المحدد، وليس ذلك في صالحهم، فإذا انتهت فمصيرهم على كف عفريت.

هدير الشاحنات، وضجيج آلات خلط الأسمنت يرتفعان، وأشعة الشمس منعكسة على أجساد البنائين، وكان عمر في جهة البنائين الذين وضعوا شبكة الحديد تأهبًا لبناء السقف أو ما يسمى (بالضّالة)، فبدأت ألسنة العمال تنادي:

- اللهم صلّ على رسول الله ..
- بجاه النبي ..

وبدأوا في رمي الخليط الذي تلفظه آلات الخلط، التي تدور كلما رموا في حلقها الماء والأسمنت والحصى، فتبدأ بمزجه حَتّى يصبح جاهزًا لبناء السقف، وتختلط أصوات الآلات بأصوات العمال ونداءاتهم:

- اللهم صلّ على رسول الله..
- ويصرخ المُكَلَّف :

- يا الله يا رجال !

فتستمر هذه العملية ثلاث ساعات أو أقل، وتتطلب جهدًا أكبر من عمال كثر، فبدأ عمر يحس بالتعب يدب إلى أوصاله، وفي غفلة من المراقب يتناول كأس ماء، ويسترق النظر بين شقوق الالواح الخشبية، فيستريح قليلًا، بينما يواصل العمال مهمتهم الشاقة.

من يدري؟ ويضمن لك يا عمر أن تبقى حرًّا هكذا، تختبئ وتغش في العمل؟ قد يضبطك رئيس الورشة في أي لحظة، وستنال نصيبك من السب والشتم، فهذا رئيس جديد ذو طبع عدواني صارخ، يميل إلى القسوة، لا ينأى عن إصدار الأوامر لسبب ما، ولا يتورع عن السب والتجديف أحيانًا..

وشرع العمال يهللون.. الله أكبر.. الله أكبر.. اللهم صلِّ على رسول الله.

وبينما أَخَذَ العمال يفرغون آلات الخلط من محتواها، ويملؤون الدلو الحديدي بالخليط، فيسحبونه بمخطف من حديد، وينتزعه أحد العمال على السطح فيرفعه بآلة الجر (جرارة)، فيدفعه عمر، فيتم إفراغه من محتواه، وهكذا تستمر العملية.

فيما كان رئيس الورشة يصرخ بأعلى صوته ونظراته الحاقدة مصوبة تجاه العمال، وكانت يده تلوح باتجاه عمر، وأحس عمر بِأَن وقته قد حان، وظل يحدق في اتجاهه وعيناه لا تفارقانه. لا يدري عمر مَاذَا يخبئ له القدر، أم أنّه ارتكب خطأً ولم ينتبه إلَيْهِ، ولكن ربما وشى به أحد

العمال لدى رئيس الورشة لكي ينال عطفه أو يعينه في مكان ما أرفع، وبدأت التكهنات تدور في ذِهْنِ عمر.

ولكن لماذا لا تتزحزح عين رئيس الورشة عنه؟ أسئلة أسئلة لا يجد لها عمر جوابًا يشفي غليله، أم هي نظرات الشر التي يرمقه بها هذا الرئيس العجوز؟ فأصيب عمر بالحيرة والارتباك. وبدأت يداه ترتعشان أثناء حمل الدلو الحديدي المليء بالخليط.

لا يدري عمر مَاذَا سيقع، وَلِمَاذَا تصوب في اتجاهه هذه النظرات الشزراء الغاضبة الحقودة، وإلا فما الداعي إِلَى كل هذه المواقف.. أشياء غامضة ومبهمة تتجلى في عينيه.

وفجأة تزحزح من مكانه متجهًا إلى مكتبه، وقد أراح عمر بمغادرته، واستراح العمال من رؤية وجهه المتجهم وهم يتصببون عرقًا.

وتمتم أحدهم:

- راه عصرنا ..
- وكانت أعينهم متجهة صوب عمر.
- عيناه مركزتان عليك يا عمر.

وبينما هم غارقون في الحديث مع صديقهم عمر، سمعوا صوتًا يصرخ باسم عمر:

- عمر .. عمر ..

والتفت عمر نحوه ليتأكد من أنّه هو المطلوب.

- أَنَا.

- أنت.
- سير تكلم لرئيس أنّه يوجد في المكتب.

وطافت به أمواج من الاحتمالات في خاطره، وهو يتجه نحو مكتب الرئيس، فلماذا يطلبه رئيس الورشة؟ واجتاحته مجموعة من المواقف كان قد مر بها، وسرت قشعريرة في كل بدنه، وشلت قدميه بعد أَن علم أن رئيس الورشة يطلبه، وفي هذه اللحظة بالذات، لماذا... وعلى أي شيء؟

فبدأت رؤوس العمال تطل من الطابق الثاني، والعيون تتابعه في طريقه إلى مكتب الرئيس، فتجاوز مكان البناء والمستودع، وتخيل نظرات العمال متلهفة لمعرفة ما سيقع وهم حيارى يتساءلون.

لم يتبقَّ بين عمر والمكتب إلا بضع خطوات، فاتجه صوب الباب ليفتحه، لكن الحارس سبقه وفتح الباب، وظل عمر واقفًا مشدوهًا أَمَام الباب ينتظر إذن الرئيس بالدخول.

وجاءه من الداخل صوت الرئيس:

- ادخل.

دخل بعد أن نفض الغبار وآثار الأسمنت عن حذائه، وجلس على كرسي مريح وقبالته مكيف الهواء، فكان بحاجة ماسة إِلَى تجفيف العرق المتصبب من جبينه، وخرج رئيس الورشة من صمته:

- تبارك الله على سي عمر.

فتأثر عمر لسماعه هذه الكلمات، وحاول أن يضبط أعصابه من خلال كلام الرئيس.

فرد عليه عمر باسمًا:

- الله يبارك في سعادة الرئيس، وأمد الله في عمرك.

فقاطعه الرئيس:

- بلا تزواق الهضرة ...

فقال عمر عابسًا:

- مَاذَا فعلت يا سعادة الرئيس؟

فتحدث رئيس الورشة بسخرية:

- ما أجمل حديثك!

فتكلم عمر بلهفة:

- لم أفعل أي شيء يغضبك يا سعادة الرئيس.

فصرخ في وجهه:

- إنك تعرف مَاذَا فعلت يا كلب!

فتكلم عمر منحنيًا رأسه:

حاشا، سعادة الرئيس، أن يتكلم بمثل هذا الكلام.

فسبه رئيس الورشة قائلا:

- كلب ابن كلبة!

ورد عمر قائلًا:

- هذا عار.

اسمعني عويمير الكلب، مَاذَا قلت للعمال البارحة؟ ظانًّا منك أن الأخبار لا تصلني! يوجد من يأتيني بما تناولت به عشاء أمس.

فصُدم عمر جراء ما سمع. وكان يتابعه فيما يقول ويستمع إلَيْهِ كأنه لن يتوقف عن الكلام، وتحدث عمر في مخيلته: ولاد الحرام الجواسيس..

وتساءل عمر:

- شكون هاد الخدامة أسعادة الرئيس؟

ورد عليه غاضبًا:

- ما زلت لم تفهم ما أعني يا كلب.
- العمال الذين حرضتهم أمس.

فتكلم بلغة الواثق:

- لا أعرف.

ورد الرئيس على الفور:

المسألة واضحة: أمس حرضت العمال على أَن يستفزوني وأن يقبضوا أجورهم ويتركوا العمل في الورشة.

لا تلعب معي هكذا يا كلب، ولا تكذب عليّ، فكل شيء أعرفه عنك، وكل كلمة قلتها وصلتني.

فاندهش عمر، وتأكد أن المراوغة لا تنفعه، فليقع ما سيقع..

وحدجه رئيس الورشة بعين ثاقبة كأنه يعرف ما يدور في خاطره. فقال بضجر:

- تكلم، لِمَاذَا حرضت العمال؟

فتساءل عمر:

- أي عمال حرضتهم؟

- العمال الذين حرضتهم وخطبت فيهم خطبتك العصماء.

وهز عمر رأسه نافيا.

فرفع الرئيس صوته:

- دعنا من مراوغاتك، لسنا أطفالًا..

وبدا لعمر أن الحديث بَدَأَ ينتهي، وما عليه سوى أن يعترف بتحريضه للعمال، وأن ينهي هذه المحاكمة غير المنتظرة التي نصبها له رئيس الورشة الجديد وأن يظل فيها إِلَى نهايتها.

كان الحارس واقفًا أَمَام الباب يسترق السمع إلى الحديث الذي يدور بينهما، ويتابع حديثهما عن قرب، بيد أن حوارهما لم ينتهِ بِأَن يعترف عمر عما بدر منه من تحريض.

ومسح رئيس الورشة على رأسه مخاطبًا عمر:

- تكلم.

فتساءل عمر:

- مَاذَا تقصد؟

فصاح الرئيس:

- قلت لك تكلم، اعترف يا كلب!

- فبماذا سأتكلم وأنا لا أعرف شيئًا؟

فبدأ عمر يضبط أعصابه، ويسود مشاعرَه طابعُ الهدوء بعد أن استوى في جلسته، وراح يراوغ تساؤلات الرئيس، ويجيب عنها باللف والنفي القاطع، وأنكر صلته بتحريض العمال وما شابه ذَلِكَ، واعتبره

افتراء وتلفيقًا عليه من بعض الذين ممن يتحاملون عليه ويكنون له الحقد.

فرفع رئيس الورشة صوته وهو يسب عمر:

- دوي الحمار!

هل ناديت عليك بِأَن تلعب معي؟

- تكلم.

فغمغم عمر:

- صدقني أيها الرئيس، فأنا لم أحرض العمال.

فتحدث رئيس الورشة مستدركًا:

- أصدقك يا حمار وأكذب مجموعة من العمال.

فصاح عمر:

- إنّه كذِبٌ وافتراء يا سعادة الرئيس.

- إنهم يكذبون.

وقال رئيس الورشة:

- كنت أظنك في بادئ الأمر عاملًا مجدًّا، وكنت أضرب بك المثل في العمل، واليوم أصبحت لا تساوي عندي بصلة.

وغمغم رئيس الورشة ضاربًا مثلًا شعبيًّا:

- دوز على الواد الهرهوري ما دوز على واد سكوتي.

ها أَنت يا عمر أصبحت في نظر الرئيس خائنًا، بعدما كنت تكبر في عينيه من خلال عملك، واليوم أصبح لا يثق فيك، وقد عرفك من خلال الأعوان المُكَلَّفين بمراقبتك والعمال الذين وشوا بك لدى الرئيس.

وساد الصمت بينهما، وبدأ الرئيس يتفرس في وجهه:

- لقد عرفتك على حقيقتك يا غشاش!

وصفعه صفعة قوية على خده، التهبت منها صفحة وجهه وصارت حمراء من أثر الضربة، ووضع عمر كفه على خده المصفوع.

لا يقدر أحد أَن يوقف رئيس الورشة عندما يركبه الغضب، فهو مثل آلة فتك يقودها مجنون، يندفع صوب ضحيته يمزق جسدها تمزيقًا، فهو لا يكل ولا يتعب، وويل لمن يقاوم أو يعترض طريقه أو يحتج على سلوكه.

فلست أَنت يا عمر من تعرض للصفع على يده، بل عمال في سنه أو أكبر منه، فاصبر.

ها أَنت يا عمر في مأزق، يجب أن تعرف كيف تتعامل، وألا تخرج عن طورك فتصبح معرَّضًا لعقابٍ أشد، وهذا الموقف الذي تعرضت له تعرضَ له من سبقوك، ولكنهم يتعاملون معه بسلاسة وأحيانًا يردون عليه بالمثل كالجيلالي العروبي.

ورن جرس الهاتف في جيبه، فأخرجه، ثم أنصت قليلًا، وبدت على وجهه ابتسامة عريضة، وخرج من الباب ومضى إِلَى الخارج يتحدث، وعمر يتابعه بعينين ذابلتين وكفه على خده.

إنّه يتحدث إلى زوجته، وتنفس عمر الصعداء بعدما سمع أنّه يتحدث إِلَى زوجته، بعدما هاله الأمر وظن أنّه يتكلم مع مفوضية الأمن، ها هو قد صفعه وسبَّه، ولكن شيئًا يجتاح عمر، هل هو إحساس أم قرب انتهاء ساعته من العمل في هذه الورشة الملعونة؟ وتخيل نفسه رئيس الورشة وهو يعطف على العمال ويتركهم يستريحون.. وما خياله إِلَّا نزوة عابرة قد تُمحى من فكره الذي يدور بسرعة الكون. فأغلق رئيس الورشة الهاتف، ودفع الباب،وجلس، وهو يدور بعينيه في المكتب، ويحذق في عمر ليتأكد من أنّه ما يزال جالسا في مكانه.

- ما زلت يا كلب لا تريد أَن تقول الحقيقة.

فرفع عمر كفه عن خده قائلًا:

- بماذا سأعترف؟

ففتح قنينة ماء وشرب، ووقف بجثته الضخمة في وجه عمر كأنه سيقبض عليه ويرميه من نافذة المكتب.

وتحدث بجد:

- كفى من مراوغاتك الزائفة يا حمار.

وأخرج من جيب بدلته علبة سجائر، وتناول منها سيجارة وأشعلها، وراح يدخن بعصبية وينفث الدخان في وجه عمر دون أن ينبس ببنت شفة، وظل صامتًا لا يتزحزح من مكانه، كأنه جماد. ثم قام ماضيًا إلى النافذة ومد بصره إلى مستودع الورشة الكبير، ورمى عقب السيجارة

المتبقي في يده، وتناول قنينة الماء وشرب منها، ثم تمضمض ومال نحو أذن عمر غاضبًا:

- ننادي البوليس.

فخرج عمر عن صمته متكلمًا:

- اعف عني..

وصفعه مرة أخرى قائلًا:

- لن أعفوَ عنك، وأنت عنيد تستحق أَكْثَرَ من الضرب، فلماذا تنكر تحريضك للعمال؟

- يجب أن أسلمك لرجال الشرطة.

فبدأ عمر يتوسل إليه:

- الله يحفظك الله يرحم لك الوالدين..

- أَنت تستحق السجن، ولتكون عبرةً لمن أراد أَن يقوم بشغب وأن يرد على كلامي..

- لماذا لم تعترف قبلًا؟ هل أَنت من النوع الذي يجب حكه؟

وتكلم عمر بنبرة منهزمة:

- سامحني، ولن أقوم بمثل هذه الأفعال مرة أخرى..

أَنَا أعرف أنك تكذب، وعرفتك اليوم من خلال العمال الذين أخبروني عنك بكل صغيرة وكبيرة، وبما تقوم به من أعمال، وأنك غشاش لا يضاهيك أي واحد في الدنيا.

- يا كلب.

ولبث عمر متسمرًا في مكانه يستمع إلى الشتم والسب من رئيس الورشة، لقد أصبح في مأزق ويجب أَن يجد حلا لكي يفر من مخالب هذا الوحش الذي قد يفترسه في أي لحظة.

وصرخ في وجهه:

- يا مخرب، تريد أن تخرب الورشة.

فقال عمر كالنادم:

- معاذ الله، ونيتي ليست الخراب..

فتحرك رئيس الورشة تجاه مكتبه، وجلس على كرسيه المريح، وأخرج ظرفًا صغيرًا من درج المكتب، وكتب عليه: عمر بونظيف، وأعطاه ورقة وقال له: وقّع عليها، فوقع عليها عمر، وأخذ رئيس الورشة الورقة وردها إلى درج المكتب.

فحدثه:

هل تعرف ما في الظرف؟

- لا.
- إنّه أجر عملك.
- وأنت مُنْذُ اليوم مطرود من العمل، أغرب عن وجهي، ولا أراك مُنْذُ اليوم، أغرب يا كلب!

وجر عمر الباب وخرج لا يلوي على شيء، وركب دراجته وراح يدوس بقدميه الطويلتين، وتعجب كيف نجا من مخالب هذا الوحش وهو لا يكاد يصدق.

- لا ترني وجهك يا كلب!

عاد إِلَى غرفته الكئيبة، وهو لا يعي أنّه نجا، فقد رجع مطرودًا، ولكنه يحمل ظرفًا فيه أجرته الأسبوعية التي ستكفيه لمواجهة بعض الأيام، وأداء إيجار الغرفة الضيقة.

دار شراس للنشر

الفصل التاسع

وبعدما تمّ طرده من العمل، أصبح بلا عمل وبلا أجر!

كان يمشي في الشارع صباح ذلك اليوم، وكان يحسّ بأنّ نقصًا ما قد لحقه ويشعر بإحساس غريب، فقد كانت تنتابه مجموعة من الأفكار المضطربة والقلقة، لا يعرف بالذات مصدرها، وكانت تفسد عليه هذه المشية الصباحية غير المعتادة.

كان يتمنّى في أعماقه لو أنّه لم يكن موجودًا على هذه البسيطة، أحسن وأرفع من العيش في متاهاتٍ لا حصر لها وأحلامٍ لا حدود لها.

ها هو يمشي كالناس، عاقلًا يعرف بالضبط ما وقع له، ومتذكّرًا ما حدث بالأمس من طرده.

كلّ ما وقع له يقع في كلّ يوم للعمّال مثله، وما عليه إلا بدءُ صفحة جديدة من حياته، ويجب أن يجد عملًا محترمًا وشريفًا يليق به، يجب أن يعيش مثل الناس وأن يطرد من رأسه تلك النزعات التي قد تؤدّي به في أيّ لحظة إلى الهلاك. لا تنسَ يا عمر أنّك شابّ وعاقل، ومن أمثالك من يملكون أبناءً وثروةً ومنزلًا، عليك أن تجتهد بكدّك فكلّ شيء ممكن.

ها أنت ترى كلّ شيء.. بالأمس تمّ طردك من ورشة البناء، بعد تحريضك للعمّال على أن يقبضوا أجورهم ولا يعودوا مرّة أخرى إلى الورشة للعمل تحت سيطرة الرئيس الجديد المجحف، ولكنّهم وشوا بك لدى الرئيس بأنّك صاحب هذه البلبلة، وعنصر مشاغب مبحوث عنه في الورشة، وأخيرًا أصبحت الورشة يسودها شيء من النظام بعد أن كنت توسوس للعمّال وتحرّضهم على الإضرابات، ويجب تغيير هذا المكلَّف الجديد للورشة، ظانًّا أنّ ما تقوم به في صالحك.

ورائحة تحريضك للعمّال قد وصلت إلى أنف رئيس الورشة الجديد، الذي كان يرى فيك مثالًا للعامل المجدّ، حينما رآك ذات يوم وأنت تعمل بكلّ ما أوتيت من قوّة، ولقد أصيب بصدمة حين سمع باسمك ومعه المكلَّف.

وراح يتمتم:

- أي على عويمير هو لي دار هاد شي.

فكّر يا عمر: ماذا تعمل من جديد؟ فتّش، ابحث.

هل سيبحث من جديد؟

بل يجب أن يحيا حياته الخاصّة وأن يعيش مثل الناس.

مرّ بجانبه شابّ طويل القامة يبيع كتبًا عن الحظّ والطالع، وكيف تملك أموالًا طائلة في ظرف ثلاثة أيّام، وكان يصرخ: كتب عن الحظّ.. أسرعوا، فرصة أمامكم، تحرّكوا يا ناس، ثمن مناسب لقدرتكم وطموحاتكم.

وقف الشابّ أمام عمر وألقى عليه نظرة متفحّصة كالتاجر إلى زبونه، ومدّ له مجموعة من الكتب، وقال له:

- ستحتاج إليها في أزمتك..
- أشياء تهمّك..

ولكن عمر غارق في مشاكله، مهموم إلى أبعد حدّ، سابح مع أفكاره وذكرياته المؤلمة.. ذكرى حزينة.. وفاة الأمّ وقبلها الأب، وفصلٌ من العمل، كلّها ذكريات كفيلة بأن تُلهي عمر عن النظر في وجه الشابّ أو حتّى الردّ عليه.

تفرّس عمر في وجه الشابّ الذي جمع كتبه بخفّة، وابتعد عنه، وظلّ يتطلّع إليه بتعجّب، حاسبًا إيّاه من سكّان الأرصفة.

في غفلة منه، وجد نفسه داخل المقهى الذي يجتمع فيه مع ثلّة من أصدقائه المعطّلين والكسالى والعاجزين، فوجدهم جالسين في مقاعدهم المعروفة التي ربّما ورثوها عن آبائهم أبًا عن جدّ.

جلس في مقعده، وظلّ يحملق في سقف المقهى وصوره كأنّه لم يرها ونادى بأعلى صوته:

- نص نص أقهواجي..

جلس هكذا جامدًا لا يتكلّم مع أحد، صامتًا، وعيناه مسمّرتان على شاشة التلفاز تشاهدان الأخبار التي تُبثّ من قناة الجزيرة، وهو يسمع ولا يعي شيئًا ممّا يقع حوله في هذا العالم، وهو لا يكفيه سوى أن يعيش، ودائمًا يردّد القولة التي حفظها عن ظهر قلب أيّام الدراسة:

- أنا ومن بعدي الطوفان..

وكأنّه في هذه الدنيا وحده الذي يجب أن يعيش.

ولكن ما يريده هو أن يعيش لا غير، وأن تتوفّر لديه النقود كلّ يوم، وهذا هو همّه الوحيد في هذه الحياة، ولا يريد أن يعمل.

لبث في مكانه هكذا مسمّرًا، تارةً ينظر من زجاج نافذة المقهى المطلّ على الشارع يتفرّج على السيّارات التي تصعد وتهبط في غير انتظام، من جراء سرعتها وتهوّر سائقيها، وتارةً يرفع رأسه نحو شاشة التلفاز المثبّتة في ركن المقهى، ثمّ أقبل على القهوة صديقُه عصام، كان يرتدي قميص أحد الأندية الإسبانية وسروالًا رياضيًّا وحذاءً رياضيًّا، وقد قطّب جبينه وسلّم على عمر وطلب كأس قهوة وآثار القلق بادية على محيّاه..

وكلّمه عمر:

- مالك عصام؟
- أنت تعرف عمر.

ردّ عليه عمر بالنفي:

- لا أعرف شيئًا.

فأجابه عصام متجهّمًا:

- أنت السبب.
- علاش.... مالي أنا؟

فحمّله عصام مسؤولية طرده.

- أنت من تسبّب في طردنا.

فردّ عليه عمر:

- أنا لست من طردك، بل رئيس الورشة من طردك.

فغمغم عصام:

- أصبحت تنعم بالراحة في ظلّ طردنا، وماذا جنيت من طردنا؟

فابتسم عمر بخبث:

- حتّى أنا طردوني مثلك.
- أنت لا تستحقّ الطرد بل الشنق.
- لماذا؟

- لأنّك تسبّبت في طرد العديد من العمّال.
- علاش؟
- قلت ليهم: طيحو في البحر يطيحو.

فتكلّم عصام:

- ها هو طردنا، ماذا سنعمل؟
- العمل موجود في كلّ مكان.

هكذا ردّ عليه عمر مطمئنًّا، ولكن صديقه عصام كان أكثر انفعالًا.

وقد أصبح عصام وعمر من جملة المطرودين من ورشة البناء، ولكن بالحقّ، عصام لم يكن عنصرًا مشاغبًا يستحقّ، على إثر ذلك، الطردَ، وإنّما جرّته سيول عمر الجارفة والباثّة الحقدَ في نفوس العمّال تجاه رئيس الورشة الجديد.

فعاد عمر مرّة أخرى لطمأنته قائلًا:

- الأرزاق بيد الله..
- ما إن يُغلق بابٌ حتّى تُفتح أبوابٌ.

الفصل العاشر

غادر غرفته الكئيبة حينما اخترق طريق السوق الأسبوعي بعدما تسلّق سوره، الشمس تشرق بأشعّة حامية من سماء باهتة، وغبارٌ يتطاير وأكياسٌ بلاستيكية تطير في الهواء، وكان قلبه يخفق بالحياة، فهو يريد أن يستمتع بالحياة قبل أن تفوته، ولكن بقدر ما كان يجب أن يولد من طبقة الأغنياء، ومنذ طرده أصبح يكنّ للناس كلّ الكره ويتمنّى لهم الموت، وتذكّر والده وأمّه التي كانت سنده ودعمه الوحيد في هذه الحياة، وجارتهم الضاوية. ولكن ماذا سيعمل؟ لن يقدر أن يوقف زحف الموت إليهم فأجلهم انتهى، فكّر في نفسك، فأنت وحيد في الحياة، وسار متمهّلًا في خطواته، متلفّتًا يمنةً ويسرةً، وصادف ذلك وقت خروج التلاميذ من الاستراحة. وكان يحبّ النساء ومغرمًا بهنّ، كم من مرّة أحيا لياليَ في غرفته الكئيبة مع عاهرات رخيصات، ولا يفوته النظر إلى مؤخّرات التلميذات الخارجات من المدرسة لأنّ المدرسة قريبة من مقرّ سكناه. فكان يشتهي فيهنّ الأرداف، وهو بين معاكسٍ لهنّ أو متتبّعٍ لدخولهنّ إلى المدرسة، وكم من مرّة تمنّى أن يتزوّج بأجمل فتاة في حيّه، ولكنّه لا يملك ثمن المهر وليس لديه سكن مستقرّ، وهو مهدّد في أيّ وقت أن يُطرد منه. اللهمّ بركة أمّه التي يعيش بها ورضاها، هي التي تحميه من عواصف الحياة وثائرتها. وذات مرّة نجا من حادثة سير بأعجوبة بعدما ظنّ روّاد المقهى الذين كانوا يتابعون الحدث أنّه مات، ولكنّهم

وجدوه مغمًى عليه، ولم يُصب بكسور أو أيّ شيء آخر فحسده الناس على طول عمره، وظنّوه وليًّا من أولياء الله ومنهم من تبرّك به وراحوا يطلبون أن يدعوَ لهم، وتوقّف عن المسير أمام مبنى سينما المنزه، وقرأ على لافتة كُتب عليها بخطّ طويل: انتخابات المجلس البلدي، فأرجع ذكرياته إلى الوراء، إلى أيّام كان يذهب فيها مع أمّه إلى قاعة التصويت، وكانت الحلويات والأموال توزع بلا سبب، والآن قد عرف مغزى تلك الحفلات التي كانت تقام في حيّهم، وتذكّر عملية بيع الأصوات لمن أعطى أكثر، حتّى الإنسان أصبح يُباع في هذا العصر، آه.. ومكبّرات الصوت التي تهتف بحياة أحد المرشّحين، بينما هو صغير يتبع تلك الجموع الحاشدة ويجمع الأوراق التي طُبعت عليها صور المرشّح مع رمز حزبه.. ذكريات جميلة حقًّا، وحينما كان يخصّهم المرشّح بعطفه وحنانه ويغدق عليهم هداياه، وحينما قبّلك وأنت صغير، ذكريات غامضة لم يتبقَّ منها سوى الأحلام، وحيّكم كان شاهدًا على ذلك، ها هي الانتخابات لم يتبقَّ لها سوى أيّام قليلة، وستنَالُ نصيبَكَ من الرشاوى التي تُقدَّم. وتبيع صوتك بأبخس الأثمان، وسترى مرشّحين جددًا، وتقابل وسطاء يبيعون في الناس ويشترون، وهمّهم الوحيد هو ربح المال في هذه المعركة الانتخابية، والحصول على أكبر عدد من المصوّتين، ستبيع نفسك وستخسر ما قبضت في ليلة واحدة ويؤنّبك ضميرك... وستنضمّ إلى تيار الداخلين إلى قاعة التصويت، وتدلي بصوتك، وستختار مرشّحك المفضّل.. ذكريات قديمة وأفكارٌ لا تُسمن ولا تُغني من جوع، في ظلّ حاجةٍ ماسّةٍ إلى المال.

فاغتنم الفرصة ولا تتركها تمرّ، وترصّد مرشّحًا سخيًّا يدفع أكثر، والحياة فرص.

وترامت إليه أصوات من الشارع، وضجيج السيّارات، وصراخ أصحاب عربات النقل يتعالى في ساحة قريبة من مبنى السينما، وعبر الشارع بعدما مرّ بقرب مخدع قوّات المساعدة، ومال إلى اليمين، واجتاز دكاكين ومقاهيَ متصافّة في الشارع، وتوجّه نحو الجامع أو المسيد (سي بن حمد) فهو رجل سبعيني، وكان صديق أبيه، ودرس عمر على يده، وسبقه أبوه بعقود، وكان مسيد سي بن حمد يتكوّن من طاولات خشبية مهترئة فعل فيها الزمان فعله.. وسبّورة قديمة معلّقة على الحائط وبضع صور، وقف بجانب باب المسيد ينظر ويتذكّر أيّام الطفولة، ورمى ببصره إلى الطاولة التي كان يجلس عليها، وخفق قلبه فأرجعه سنينَ إلى الوراء.. سنينَ لن تعود، سنينَ جميلة بالفعل، أين ترى ذاك الزمن الجميل؟ الغرفة، المسيد، الحلوى التي كانت تمنحها لك الأمّ لتحفظ سُوَر القرآن، وكم تمنّت لك أن تحفظ القرآن بأكمله، وأن تصبح فقيهًا، ولكن مهنة الفقيه في هذا الوقت لا تجدي نفعًا، لكن بقدر ما ستنال عطف الناس وسيرون فيك القدوة التي يُقتدى بها ويقدّمون لك الطعام في كلّ وقت، ويتصدّقون عليك، ويغدقون عليك الأموال، بيد أنّ المدرسة كانت حاجزًا أمامك.. فسمع أصوات الصبيان وهم يتلون سُوَرًا من القرآن بصوت مرتفع، وخال نفسه هناك، فسلّم على الحاضرين وردّوا عليه بأحسن منها. ولكنّ الفقيه لم يسمعه؛ لأنه كان منشغلًا بالصلاة. وجلس

على إحدى الطاولات ينتظر حتّى أتمّ صلاته وطوى حصيرته، ونهض صارخًا في الصبيان: أتمّوا التلاوة، ولكنّ شبح عمر تراءى له فظنّه من أهل أحد الصبيان، جاء ليأخذه معه، وانهال عمر عليه يقبّل يديه ورأسه فشمّ رائحة صمغ في يديه، أسكرته وذكّرته بأيّام كان يمسح لوحته بالصلصال، وسلّم عليه:

- السلام عليكم، أسيدي بن حمد..

فتفرّس في وجهه، بلحيته البيضاء ومسبحته في يده، ولم يعرفه، فكيف سيتذكّره وقد مر عقدان من الزمان على مروره بالمسيد، فهو درّس وجوهًا كثيرة، منهم المحامي،.. والطبيب، والأستاذ، والقاضي،...

- عليكم السلام..

فقدّم له أحد الصبيان كرسيًّا بلاستيكيًّا، وأمره الفقيه بالجلوس، فجلس وهو يقول: باب المسيد مفتوح أمام كلّ واحد.

فسأله عمر:

- ألم تعرفني؟

- لا..

فحدجه الفقيه بعين ثاقبة، وتمتم:

- كيف سأعرفك وقد درس عندي الكثير من أقرانك؟

فأحسّ بنقص وشعر بإحساس غريب، وأزاح قبّعته عن رأسه ومسح رأسه بيديه، كيف لم يتذكّره الفقيه وهو كان من أعزّ تلامذته، وكان معفيًّا من أداء الأجرة الأسبوعية للفقيه نظرًا إلى ضعف أوضاعه المادّية.

فتحدّث عمر بلغة الواثق:

- أنا ابن صديقك بوشعيب بونظيف.

ولكنّ ضجيج الصبيان علا على حديثهم فنهرهم الفقيه بلهجته القروية، وأخذ يلوّح بقضيبٍ بلاستيكيٍّ في الهواء، فصمتوا خوفًا من أن يلسع القضيبُ ظهرَ أحدهم..

فسقط هذا الاسم على مسمعه فتذكّره:

- بوشعيب الله يرحموا، رجل صالح، هو وزوجته المرحومة..

وسأله الفقيه عن أحواله:

- حمدًا لله وشكرًا له..

وتذكّر عمر أيّام المسيد، محاولًا تذكّر صوت أمّه، وكان أبوه من أعزّ أصدقاء الفقيه، فكان ينظّف له المسيد ويغسل الطاولات أيّام الأحد، فلهذا السبب كان عمر من أعزّ تلامذته.

فعمر لم يرَ الفقيه منذ سنوات، بحكم أنه لم يكون يزوره، فقد وقعت له أشياء أزّمت أوضاعه.

فتمتم الفقيه قائلًا:

- أين بلغت في الدراسة؟

فأجابه عمر:

- قطعتها منذ أعوام..
- وماذا تعمل؟
- كنت أعمل في ورشة البناء، وقد...

- ماذا؟
- طردوني...
- نعم طردوني بحجّة أنّني أحرّض العمّال، ولكن أشياء تقع كلّ يوم وتحدث، فيلزم الصبر.

فتحدّث الفقيه:

- لا تيأس فعليك بتقوى الله.
- والأرزاق بيده..

فقال عمر:

كلّ شيء بيد الله يا فقيه.

فترنّم الفقيه ببعض أبيات:

عليك بتقوى الله إن كنت غافلًا

فيأتيك بالأرزاق من حيث لا تدري

فكيف تخاف الفقرَوالله رازقٌ

وقد رزق الأطيارَوالحوتَ في البحرِ

ومن ظنّ أنّ الرزق يأتي بقوّةٍ

فما أكل العصفورُشيئًا مع النسرِ

وأحنى عمر رأسه وراح ينظر إلى الأرض ويتذكّر آخر مرّة مرّ فيها من هذا المكان، وبدأ يتأمّل، وطال صمته، فسأله:

- تفكّر في شيء ما ندلو فيه برأينا؟

واندهش عمر فأجاب:

- أمدّ الله لنا في عمرك يا مولاي..

فقال الفقيه جادًّا:

- إذا كنت تفكّر في مشكلة ما استعصى حلّها فتكلّم، فأبوك كان صديقي ورجلًا مخلصًا وأمينًا..

فابتسم عمر بعدما رنّت في مسمعه كلمة أبوك، فأحسّ بشيء يسري في دمه فوثق بأنّ الفقيه أصبح يعرفه بلا شكّ، إنّها الحقيقة، أبوه كان رجلًا أمينًا ومتقنًا في عمله، وهو من بنى جدار المسيد حينما انهار ذات يوم بفعل رياح قوية، لو كان يتكلّم لأدلى بشهادته. ها هو يسمع ويرتطم به الصوت فلا يجيب.

وقال عمر متنهّدًا:

- يا سيّدي، إنّما جئت أزورك وأتبرّك بوجهك لا غير..

فقال الفقيه:

- زارتنا البركة والخير، وشرّفتنا بزيارتك..

وأثنى على أبيه بالشكر وبما يستحقّه من ذكر، وترحّم عليه رحمة واسعة ودعا له.

فتمتم عمر مبتسمًا:

- الله يسمح لينا من الوالدين..

فتنحنح الفقيه قائلًا:

- الوالدان أدّيا دورهما، فيجب أن تحلّ محلّهما وأن تكون نسخة منهما، مخلصًا ووفيًّا، ولا تتّبع الهوى، وإيّاك ومرافقة الأشرار.

وغمغم عمر قائلًا:

- ادعُ لنا معك..

فرفع الفقيه يديه:

- اللهمّ بارك فيه، وأنر قلبه، واحفظه من الأشرار واهده إلى صراط مستقيم..

وتمتم عمر:

- آمين يا ربّ العالمين..

وندّت عن الفقيه تنهيدة، قائلًا:

- نسأل الله أن يهديَك إلى طريق الهداية..

وضجّ المسيد بصيحات الصبيان وصراخهم، ونظر الفقيه إلى الساعة الحائطية المقابلة له فوجدها تشير إلى الثانية عشرة، وصفّق بكلتا يديه فكان ذلك أمرًا للصبيان بالذهاب، فانفضّوا من حوله مسرعين، وبدؤوا يقبّلون يديه واحدًا تلو الآخر احترامًا له أو خوفًا منه، فأحسّ عمر بانتهاء زيارته فنهض مسوّيًا قميصه وحمل قبّعته محاولًا الذهاب، ولكنّ الفقيه اعترضه قائلًا:

- اجلس، أين ستذهب؟

وأخذ ورقة بيضاء وطواها عدّة مرّات، وبدأ يقصّها، وأخرج من محفظته الجلدية قنّينة صغيرة فعرف عمر أن فيها صمغًا، وبدأ يكتب تمائمه، وحينما انتهى من كتابتها طوى تلك الوريقات الصغيرة ومدّها إلى عمر قائلًا:

- يجب أن تضع هذه تحت مسند رأسك، والآخر علّقه في عنقك، وتبخّر بالآخرين. ونصحه بأن يزور والديه وأن يدعوَ لهما.

وأخرج عمر من جيبه بضعة دراهم ونفحها في يد الفقيه ولكنّه رفضها، وأصرّ عمر عليه أن يأخذها فتلقّفها الفقيه ودسّها في جيبه، وعاد الفقيه يقول:

- إيّاك، يجب أن تزور قبر والديك وأن تترحّم عليهما..

فأجابه عمر:

- لا بدّ...

ونهض عمر هامًّا بالذهاب قائلًا:

- الله يعاون أسي الفقيه..

الفصل الحادي عشر

الذكرى الأربعينية لوفاة أمه..

استيقظ على وقع نداءات صديقه عصام، وغسل وجهه ولبس ملابسه وحمل في جيبه بعض النقود، وعرّج على دكّان قريب من مسكنه، طالبًا من صاحبه أن يصرف له ورقة من فئة مائة درهم إلى دراهم.

اتجها، هو وصديقه عصام باتجاه المقبرة، وفي طريقهما تحدثا عن دور الصدقة، وأنها تلحق بالوالدين.

حينما اقترب من مدخل المقبرة بَدَأَ يتمتم وبكلامٍ مأثورٍ عن الأوّلين.: «أنتم السابقون ونحن اللاحقون»، مستعيدًا ما ظلّ عالقاً بذاكرته ، حينما كان يتبع الجنائز.

وقف على قبر والديه بعدما اجتاز عدة قبور لا حصر لها كأنها مدينة الأموات في نظره، ونظر متطلعا إلى قبر والديه بعدما قرأ اسميهما وتأكد من أنّه قبرهما وقرأ الفاتحة رفقة صديقه عصام، ثُم مد يده إِلَى جيبه وأخرج حفنات من الدراهم، وراح يوزعها على المتسولين الذين احتلّوا المكان، إذ رأوه واقفًا يقرأ، وفي غمار ذَلِكَ جلس فقيه أعمى يتلو سورة (يس) على قبر والديه (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين...) وحينما

انتهى من قراءتها منحه عمر ما جادت به يداه، ودعا لوالديه بِأَن يكونا في المقام الكبير عند الله وترحما عليهما.

- الله يرحمكم..

وبهذه الدعوة سكب دموعا حارة على قبر والديه اللذين كان لهما الفضل في وجوده.

وتذكر من جديد أيام أمه الأخيرة، من احتضارها إلى موتها، فلكزه صديقه عصام منبها إياه إلى ضرورة الذهاب، هذا أمر لا مفر منه، كانت أمه من نساء الحي امتدت بها الحياة معتمدةً على جهدها العضلي، كانت خادمة في البيوت تعمل بلا انقطاع من أَجْل تحصيل أجرة الكراء ولقمة عيش لابنها عمر، لا غير، اختارت هذه المهنة طواعية لأنها شريفة، وتكسب أجرها بعرق جبينها، خير من النساء اللواتي يكسبن أجورهن بوسائل مختلفة ودنيئة، ويبعن أجسادهن مقابل لا شيء، وكانت ذات قوة شديدة، قادرة على اقتلاع شجرة من منبتها، ولكنها مسالمة ليست مثل جاراتها.

فمد بصره إِلَى القبور والمساحة الشاسعة التي تحوي المقبرة، وتكلم من أعماق قلبه «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ») وأدار رأسه في جميع الجهات، يشفي نظره .

قرأ الفاتحة..

وخرج يخطو بخطوات ثقيلة، ورجلاه لا تكادان تحملاه وصديقه عصام يتبعه صامتا ينظر، وترك وراءه المقبرة، حَتّى ما أن يبتعد عنها

بخطوات، حَتّى يلتفت وراءه خائفا من العدم... والفناء والعقاب... والحساب أو أَن تمتد إلَيْهِ يد من مدينة الأموات فتجره إلى حَيْثُ لا يدري.

وفي طريقه بعدما خرج من المقبرة، اصطدم بجنازة تشيع ورأى جموعا كبيرة في طريقها إِلَى المقبرة تهلل:

- لا إله إلا الله، محمد رسول الله..

ثم وقف، وبجانبه صديقه عصام، يتمتم بآيات غير مفهومة، ورأى مشيعين يبكون ويتحادثون، وتذكر جنازة أمه حينما شيعها مع عجائز من الحي وبضعة أطفال صغار يتراكضون وراء السيارة وهي تمشي بطيئةً، وتمنيت لو توفيت أمك ببطء، حَتّى يمكنك أن تراها ولو لأيام وتسعد بقربها وتنظر إليها، وهي تدعو لك بالصلاح والخير والرضا والبشر يتهلل في وجهك كأنك ملكت الدنيا كلها. وهكذا هي الأيام تمر بين فرح وحزن، وسرور ونكد، والدتك التي كانت تعمل خادمة في البيوت، كانت شريفة النفس ولو أرادت أَن تصبح من أغنياء الحي لأصبحت، ولكن العفة والشرف والنبل، فهي كانت ابنة عائلة شريفة وأبوك توفي قبل أن تراه، وقد سلكت طريقا آخر من أَجْل أَن تلبي رغبتك في العيش، وأن تضمن لك مستقبلا، ولكن دخلها اليومي لا يكفي فاختارت أَن تعيش هكذا راضية هانئة قانعة بما رزقها الله، وكم مرة حملت شموعا وحفنة من دراهمَ، وقدمتها قربانا للوالي (سيدي محمد بنسليمان). ودعت لك هناك بِأَن يقيك الله شر الشياطين، وأن يحفظك من أعين الشر

والحاسدين، وكنت طفلا صغيرا تدرس في المسيد عند الفقيه سي بن حمد، وتلعب مع أقرانك البلي والخذروف، ومرات كسر أقرانك خذروفك الذي كنت تجمع ثمنه من أسابيع، وبعد خروجك من المسيد تذهب مع أقرانك إلى السوق، هناك تمكثون حَتّى يقترب الليل تسرقون الفواكه وتتلقفون الفاسد منها، وأمك التي كانت تكدح في المنازل من أجلك، حينما قالت لك ذات يوم: اذهب إلى المسيد ومنه عند خالتك ضاوية، وحين تعود من شغلها تمنحك قليلا من الحلوى بما جادت به أيادي الخير، وتقبلك على جبينك وتدعو لك بالرضا. وذات مرة سولت لك نفسك أَن تتغيب عن حصة الفقيه في المساء رفقة أقرانك، وذهبتم إلى الغابة تلتقطون البلوط، وقبضتك من أذنيك، وراحت تسألك أين ذهبت حينما تغيبت عن حصة الفقيه فلم تجبها، فانهالت عليك بِالأنبوب البلاستيكي الأحمر، ولم تتركك حَتّى تركت جسدك كله خطوطا، ومنذُ ذَلكَ اليوم أصبحت تشك فيك، وأوصت الضاوية بِأَن تتبعك، فأحسست بالحرية تضيق عليك، وتوالت الأيام بين الغرفة والمسيد، حَتّى أدخلتك إلى المدرسة، وبمباركة من الضاوية جارتكم التي كانت تمثل السند والدعم الكبير لأمك، بعدما كانت تخفف عن أمك أعباء البيت، فكانت تغسل ملابسك التي ما فتئت كل يوم تلطخها، وتقدم لك الأكل في غياب والدتك فلها الفضل الكبير في تقويمك، ولولاها لكنت مدمنا مُنْذُ صغرك مثل أقرانك الذين يدخنون، وهكذا مرت الأيام كالسحاب، وتوفيت الضاوية ذات يوم وأنت في المدرسة، وعلمت بوفاتها من أبناء

حيك، وركضت في اتجاه البيت فوجدت أمك تبكي وتندب وتصفع خدها، وبكيت لأنه لم يكن في وسعك أن تعمل شيئا، وكنت على أعتاب المرحلة الإعدادية، وتجمدت في مكانك لأنّك لم تكن قد عرفت بعد معنى الموت، وحولك صيحات من كل مكان، ومناديل رؤوس النساء مرمية حولك، وشعورهن منفوشة ووجوههن كالحة، وجمع من الرجال متجمعين حول بيت الضاوية، يتساءلون ويستفسرون عن سبب موتها، وبالأمس شاهدوها في صحة جيدة، ولكن الموت لا يعرف الصحيح من العليل، فمن اقترب أجله فلا بقاء له، ثم يترحمون عليها لأنها كانت صالحة مثل أمك، وكانتا صديقتين لا تفترقان، تظلان جالستين قرب باب البيت، أو تراهما تنظفان البيت بأكمله ما عدا الغرف المؤجرة لأصحابها، أو تعرضان الزرع في السطح ليتم تجفيفه، وكيف أن المشيعين في ذلك اليوم أغدقوا عليك بالدراهم، ظنوا أنك من أبناء الضاوية، فراحوا يواسونك، وامتلئ جيبك بالقطع النقدية، وأنت في حيرة من أمرك لا تفرق بين الموت والحياة سيان عندك فالكل سواسية عندك سالب أو موجب، أما اليوم فأنت تقف على قبريهما تترحم عليهما بما جاد به لسانك من دعاء وثناء، وتتصدّق عليهما.

الفصل الثاني عشر

وبعد زيارته لقبر أمه بأيام، كانت ما تزال لديه بعض النقود التي كان قد ادّخرها أيام عمله في الورشة، فدعا صديقه لتناول العشاء في سناك تونسي، تناولا دجاجة محمرة وبطاطا مقلية، وكان عمر في غاية السعادة والفرح، وهو يدعو صديقه إلى مثل هذه الدعوة، وكان صديقه عصام في حاجة ماسة للأكل، فقد كان يتضور جوعا نتيجة تبذيره للأجرة في ظرف غير وجيز، بعدما اقتنى شاشة تلفاز وهاتفا نقالا من نوع جيد، فقد نزلت عليه هذه الضيافة كرحمة من السماء، وقد سمع عن المائدة التي نزلت على الحواريين في أحد البرامج الدينية، حين كان يشاهد قناة المجد، ورغم ذَلِكَ، لم يقنع بتناول العشاء فدعا عمرٌ صديقَه إلى اقتناء زجاجةٍ من ماء الحياة وتقاسم شربها، فلم يرفض صديقُه طلبه، فاقتَنَياها من عند أحد الكرّابة، ثم اتّجها صوب مدخل الغابة؛ إذ كان عمرٌ يعرف أوكارهم. واخترق الحشائش الطويلة والأشواك النابتة، وراح عصام ينير الطريق بضوء خافت من هاتفه، حَتّى اقتربا من إحدى الصخور، وافترشا فوقها ورقا مقوى، وجلسا وأخرج عمر زجاجة ماء الحياة وكأسين صغيرين من البلاستيك وعلبة سجائر، وراحا يشربان على أنغام موسيقية تنبعث من هاتف عصام، وأخرج عمر من علبة السجائر سيجارتين، فقدم واحدة لنديمه، فتناولها بين شفتيه، وراح يدخن

بشراهة، وسعل سعلة طويلة اهتز لها قلب عمر، حَتّى خال عمر أنها صوت ذئاب تحاصرهما فقال:

- أفزعتني فمن قلة الأدب أَن تسعل هكذا..

فتكلم عصام متنحنحا:

- حَتّى أَنت تعرف معنى الأدب؟

فأفرغ عمر في جوف حلقه كَأْسا من ماء الحياة قائلا:

- حياتي كلها أدب.

فرمى عصام عقب سيجارته الأخيرة قائلا:

- ولو كنت مؤدبا، لما طردوك من العمل..

وحل صمت مؤقت فارتفعت أنغام الموسيقى من خلال أحد المقاطع الشعبية (روج فمالة شربي اودوشي..) فتمايل عمر على هذه الأنغام، ونهض جاذبا صديقه من يده، وراحا يرقصان، وترقص معهما الأشجار والأشواك، وبدآ يشعران بالحيوية تدب إِلَى أوصالهما جراء ماء الحياة، ورأس عمر يذهب ويجيء مع الانغام الشعبية، ويردد بصوت مرتفع (روج فمالة شربي أو دوشي....) وشعر في أعماقه بِأَنه أسعد إنسان فوق الأرض قائلا:

- عصام را مادي معك غير لي شربتي أو كلتي.

فرد عليه قائلا:

- وايه وايه، عمر زين أو ماعرفتو فين.

فأجابه عمر بلا تردد:

- تبارك الله على خويا عصام.

وتتابعت ضحكاتهما، وشعرا بالمرح ينتابهما فبدأ مفعول المياه النارية يدب إِلَى جسديهما فأحسا بفوار ودوار في الرأس، فتقيأ عمر، في وجه عصام ،فصاح عصام قائلا:

- ما بك عمر؟
- والو..

فأخرج عصام من جيبه منديلا أبيضَ، ومسح فاه من أَثَرِ القيء وقال بلهجة تنم عن وعيد:

- شتي الماحيا أش كدير.

فقال عمر:

- أول مرة أشرب هذا النوع من الخمر.

فأشعل سيجارة وقدمها لعمر وقال:

إلى أين يؤدّي الخمر الرخيص بصاحبه؟

فسعل عمر قائلا:

- آخر مرة سأشرب ماحيا..

فشرب عصام آخر جرعة تبقت في الزجاجة ورماها بعيدا، وجر عمر بيسراه وأنار الطريق من خلال هاتفه بيده اليمنى، فاخترقا طريقا ملاصقا للملعب البلدي لنادي المدينة وهما يترنمان فصاح عمر:

- أين تاريخك، الحسنية؟ (ناظرا إلى ملعب حسنية بنسليمان).

فنهره عصام قائلا:

- الحسنية مشات مع كوايرية..

ومع اقترابهما من بناية الأمن، حَتّى وقفا جنبا إلى جنب، وطارت الخمرة من رأس عمر، وأصبح عاديا حَتّى تجاوزا البناية بأمتار، دخل عمر إلى أحد المقاهي وغسل وجهه، وأزال عنه الدوار وشرب كوبا من الماء، وخرج عند صديقه عصام الذي كان ينتظره فقال:

- انظر إلى عيني هل هما حمراوان؟

فرد عليه:

- لا..

قالها تملصا منه حَتّى لا يوصله إلى غرفته، وافترقا، كلٌّ في اتجاه مرقده وتمتم عصام في داخله:

- الله يدوز هاد الليلة بسلام مع أهل البيت..

مرت سيارة بسرعة جنونية من أَمَام عمر وهو يترنح ويدندن بصوت مسموع:

- أش داني لمدينة وعلاش مشيت...

ولم ينتبه إلى سرعتها ولم ينتبه إلى وجودها فقد نسي العالم، وغرق في أحلامه غير المنتهية، حَتّى فاجأه صوت نباح كلاب وهي تحاصره قرب السوق، فحمل حجرا ورمى به أحدها فتراجعت إلى الوراء، ولكن نباحها تصاعد فطارت الخمرة من رأْسه، وراح يرشقها بالحجارة فابتعدت عنه، وتمتم ساخطا في مخيلته:

- حينما ستقترب الانتخابات سأتكلم مع المرشح بِأَن يتم إعدام هذه الكلاب لكي ينال صوتي.

وخرج من باب السوق الأسبوعي يجر قدميه الطويلتين الغارقتين في حذاء قديم، كان قد اشتراه من عند أحد الجنود محاولا أن يتم بثمنه مصاريف الشهر.

وسار بجسمه الرقيق الذي يتمايل من أثر الخمرة، عائدا إلى غرفته الكئيبة ورائحة الخمرة تنبعث من فمه.

الفصل الثالث عشر

أمضى يومه متسكعا بين حدائق المدينة ودروبها، لم يجد عملا يقيه من التسكع وأنياب الجوع، فاتجه صوب مكتب الإنعاش الوطني قاصدا أَن يجد عملا يقوم به، لم ينتبه إلى أي شيء في طريقه غير الأفكار التي تتزاحم في رأْسهِ، وفي طريقه يتوسل إلى الله عسى أن يجد مكانا، ولم يكن مرتاحا في ذهنه، وكان قد بدأ في إنفاق النقود التي كان قد وفّرها. وتحدث في مخيلته عن دور التوفير فكل ما توفره سينفعك في الأيام الصعبة، وتمتم: قالها الأولون (الدرهم الأبيض ينفع في اليوم الأسود) كأنه بَدَأَ يحاول أن يأخذ احتياطه من القادم، ولكن كيف سيواجه متاعب المستقبل؟ كيف سينظر إلى الأمام؟ وفعلا كان على صواب، حينما تحدث إلى صديقه عصام ذات يوم بِأَن يقوما بفتح حساب لهما في البنك:

- الوقت هادي عصام لا نعرف مَاذَا تخبئ لنا؟

كان الزمان قاسٍ على أمثاله، لم يترك له أبوه ثروة ينتفع بها أو تقيه من هذه المتاهات، كيف كان أبوه؟ كان مغفلا لم يجمع ثروة، في حين كان من أقرانه من يملك دكاكين ومنازل وأراضي شاسعة، بَدَأَ يتساءل كيف نسي نفسه هذا المغفل؟ ولكن أباه كان شريف النفس لو عمل مخبرا للاستعمار، لترك له أراضي ودورا وأموالا لا يفنيها المحيط، ولكن حب

الوطن والقناعة، وتقديم روحه فداء للملك المفدى محمد الخامس شعاره وشعار المقاومين الأشداء، كلها سمات كان يتسم بها أبوه، وعرف في حيه بِأَنه مخلص ولا يحب أموال غيره، وتجاوزت سمعته الحدود، ولكن مَاذَا ستنفع هذه الخصال عمرَ؟ ولم تضمن له أي شيء بعد وفاة أبيه، وبدت له صورة أمه وهي تعمل بكل جهد لتضمن له أَن يحيا حياة جميلة مثل أقرانه في الحي، وحينما تقبل إلى الغرفة حاملةً بعض الحلوى والملابس التي يجود بها بعض المحسنين فيطير فرحا، فابتسم قائلا:

- الله يرحمك الوالدة، كنتي نافعاني..

في طريقه كان يهذي في خاطره، غارقا في همومه سابحا في عوالمه غير المحدودة، لم يعد يشعر بشيء لا ينتبه للمارة، وراحت تطوف بخياله آلاف الصور، وجرته صورة أمه التي ذكرته بذكريات بعيدة جميلة في المسيد... الغرفة... الحلوى... اللّعب، وفي خضم ذكرياته سبه شاب أكبر منه بقليل حينما اصطدم به وبصق قائلا: الحمار..

- الحمار ماكتشوفش؟

وهو غارق في أفكاره وذكرياته يتلذذ بها... الحمار... الحمار وراح يكرر كلمة الحمار ويلوكها بمرارة.

عمر الشاب الذي خرج يبحث عن عمل، أصبح حمارا يجر وراءه عربة لنقل الخضر.. والنفايات... ظلت تدغدغ رأْسَه.

حمار... ذكرته بأيام الورشة، ومنذُ أيام حينما طرده رئيس الورشة بوشاية من أصدقائه العمال الذين حرضهم على القيام بالشغب،

وتسبب للورشة في خسارة.. حمار، تكلم يا حمار، كلب، كلها أسماء حيوانات، فكلنا حيوانات ناطقة.

ويردد لسان عمر أنّه لو وجد القدرة على صفع الشاب الذي سبه لما تأخر، ولكنه شاب أقوى منه.

وسرعان ما تلاشت تلك الوساوس والأفكار عنه، وراح يخبط من جديد منحدراً في طريقه صوب البلدية عبر أزقة ملتوية للمدينة والشارع الفسيح، واخترق مدخل الحديقة، ومال على يساره، وراح يتأمل أسرابا من تلميذات يقهقهن بصوت عالٍ، ولعن وسب في سره ، وتذكر خطيب المسجد والدرس الذي ألقاه يوم الجمعة عن المرأة التي ترفع صوتها والعذاب الذي ستلقاه، وأن جهنم مليئة بالنساء، فطمأن نفسه بِأَنه سيضمن مكانا في الجنة، لأنه يحارب المنكر بقلبه، ولكن تذكر أمه: هل ستكون مع نساء ستمتلئ بهن جهنم؟ وراح يدعو لها بِأَن تشرب من نهر الكوثر وأن تكون من زمرة الناجيات.

وراح يبعد عنه كل تلك المخاوف والهواجس التي تدور في رأْسه، وهفا إِلَيْهِ قلبه في غموض، ولم يكن لوحده من يقصد هذا المكان لطلب العمل، بل شبانٌ في مثل سنه تبدو على سحناتهم آثار الفقر، توقف عن السير أَمَام مستودع كبير يضم شاحنات لحمل النفايات، وعربات صغيرة معدة للدفع، وجرارات ضخمة، وسيارات محجوزة، ومجموعة من الشتلات للغرس، وحارسٍ يحرس هذه المعدات،التي تستغل من

طرف أشخاص في غير أوقات العمل، اتجه صوب الحارس وسأله بصوت ينم عن احتشام واحترام:

- سي إدريس..

فتفرس الحارس في وجهه والكلاب تشمه ففزع، وأخفى قلقه فسأله الحارس بغضب:

- لماذا تريده؟

ورد عمر قائلا:

- بغيت نتقيد في الإنعاش..

- آه بغيتي تقيد..

فرد عليه الحارس:

- اتجه نحو الباب والتف عن يسارك.

فشكره عمر وابتسم.

دخل الباب الرئيسي الذي نعته له الحارس، فالتف عن يساره، فتراءى له باب علقت عليه يافطة كتب عليها بخط واضح مكتب الإنعاش، فوقف متهيبا أمام الباب، يرتعش خوفا من المجهول، وأزاح عن نفسه تلك الرهبة، ودق الباب بصوت مسموع فأجابه صوت أنثوي:

- ادخل..

ففتح الباب وتسمر في مكانه، ورأى فتاة جميلة في مثل سنه، تجلس على كرسي ضخم، وتمسك برزمة من الأوراق وتتمعن فيها، فطال وقوفه في مكانه فهزت رأْسَها وقالت:

- ادخل مالك حشمان؟
- اجلس..

جاء متهيبا ودخل متهيبا، فيما السكرتيرة تراقبه، وتنتظر أَن يفصح عما جاء به، وهو يحملق في أرضية المكتب المزينة بزخارف هندسية، وتذكر غرفته: ما الفرق بينهما؟

ما المسألة؟..... مكتب سكرتيرة.... زخارف، صور، مكيف هواء، وندم على الدراسة التي تركها، وأخيرا خرج عن صمته، متحديا المكتب.... سائلاً السكرتيرة:

- سي إدريس..

فبدا هذا الاسمُ كأنه غريبٌ عنها، فهي لم تعتد سماعه، قائلة:

- ما طلبك يا سيدي؟

فأحس بنشوة "سيدي"، كلمة لم يناديه بها أي أحد، حَتّى رئيس الورشة التي كان يعمل فيها لم يحترمه حين طرده فابتسم قائلا:

- بغيت سي إدريس يقيدني مع الإنعاش..

فردت عليه بِأَن سي إدريس في اجتماع مع رئيس البلدية وأعوانه، ولن يعود إلا في الصباح..

- سير حَتّى صباح أو رجع...

فوقف وشكر السكرتيرة، ودفع الباب، وخرج لا يلوي على شيء، فلعن في سره السكرتيرة ومن نصّبها.

الفصل الرابع عشر

انقرض... خير لك وأهنأ...

ولكي تكون صافيَ الذهن وخالياً من المشاكل، ابتعد عن هؤلاء القوم فهم يكدرون صفو حياتك...

وبنظراتهم يبثون سهام البطش فيك..

لا تنخدع بمظاهرهم الزائفة، فباطنهم شر، وظاهرهم كله سعي وراء الخير والإحسان إلى اليتامى.

خذ حذرك يا عمر...

فالحياة غابة مليئة بالذئاب، فإذا وقعت فريسةً لهم فلا تلومن إلا نفسك ولا تلعن حظك وتتهم القدر.

أَنت من وقع في هذه المصيدة، انتبه دوما، فالأخطار تحدق بك والأعين تراقبك... والكل يكرهك، الغلبة للأقوى.

غادر.. ابتعد.. ابحث عن مكان آخر..

ولكن هيهات أن يطيب لك العيش بين هذه الأقوام التي تطعن في الظهر وتمدح أَمَام الوجه.

دروب مقفرة، وأناس خونة، وشوارع مظلمة، آخر ما تبقى في هذه المدينة الكئيبة.

يا لها من حياة بئيسة، وأجر ورزق منقطع، متى سيفتح الله عليك يا عمر؟

- اللهم فرج عنا الكربة..

بهذه الدعوة تمتم عمر..

وكم تمنى في صغره أن يصبح يوماً لاعبَ كرة قدم مشهوراً، يجني أموالاً طائلة من وراء لعبها، أو يهاجر إلى الديار الأوروبية، ولكن الأحلام شيء والواقع واقعٌ مرٌّ.

اندفع.. اجرِ..

وتدافعت الأحلام في رأسه كزحام في سوق.

استيقظ من أحلامك المؤقتة، واجه الحياة التي لا فرار منها، وأنشب مخالبك فيها.

هذا هو عمر كأقرانه، مرت أعوام ولم تتغير صفاته.. الدنيا لفظته، كأنه ملفوظ دنيوي.

عدمه خير من وجوده.

ساهم في بناء الحياة، اعمل بنّاءً... حفاراً... دوّن اسمك في سجل الحياة، انتصر على الزمان، لا تستسلم، صر من ورثة سيزيف، ابحث لنفسك عن لقمة عيش حلال تقيك من شر أعين الناس، ونظراتهم المحتقرة لعنصر خامل معدوم الإرادة، ومسلوب الفضيلة، افرض سيطرتك بكل ما أوتيت فليرضوا عنك أولاً، وشغلهم الشاغل هو عيوب الآخرين لتمضية الوقت، لا تترك مجالا لمن يتلاعب بمصيرك ويهدر

سجلك الأخلاقي المشهود له باحترام الآخر، وعدم إيذاء أشخاص يحترمون أنفسهم. ولكن حين يشتد غضبه فإنه يثور ويسب، هذه هي شخصية عمر البائس، بحث عن عمل، فتّش، وأرسل طلبات، وتعرض للابتزاز كم من مرة، وأراد أن يلتحق بسلك الجندية، ولم يجد من سيقف معه، ومضت أعوام وهو يعمل أجيرا لدى البنائين، فهو اليوم يريد أَن يستقر في عمل يضمن به قوته، وينأى عن ضربات الأعوام القادمة، وكم من مرة راودته فكرة أن يتاجر في الخردوات، ولكن ينقصه رأس مالٍ فدله أصدقاؤه على أَن يقترض من إحدى المؤسسات التي تمنح القروض الصغرى، فنبهه صديقه الحسين العسكري إلى أن تلك الأموال التي سيقترضها أموال ربوية، فتراجع خائفا من أن تبور تجارته ويخسر، فقد سمع عن تجار كبار غامروا في السوق السوداء، وخسروا أموالا طائلة وبدأوا من جديد، قمة الانتصار عنده هي أن يوفر ثمن الإيجار، ومصروفه الشهري، ثم يستريح من الهواجس التي تدور في رأْسه، ويخلد إلى الراحة ولو لوقت قصير فثمن الإيجار يؤرقه، وهو لم يتحمل مثل هذه المسؤولية إلا بعد وفاة أمه، فأحس وعرف معنى الحياة ونصائح الأم له.

- (سير تعلم حرفة)..

ها هو الآنَ بَدَأَ يعي ما كانت تقوله له الأم، بعد حياة جميلة عاشها في ظل أمه، كانت توبخه ليل نهار لعدم اعتماده على نفسه مثل أقرانه، وتطلب منه أن يدفع كروسته ويعمل مساعد خضار. أرادت أن تصنع

منه رجلَ المستقبل، بعد طرده من المدرسة، وأن تلقنه مبادئ الحياة، ولم يكن يبالي بنصائحها، فبدأ بمرافقة أقران السوء، وبعد وفاة الأم وجد نفسه وحيدا بلا معين، وندم على تصرفاته الصبيانية، وتذكر نصائح الأم وأحس معانيها، وتذكر كل كلمة قالتها، ولكن بعد فوات الأوان لا ينفع الندم صاحبه، وأصبح يحس بِأَن شيئا ما ينقصه بعد أن تنكر له الأصدقاء، حَتّى أبناء صاحبة البيت لم يقدروا ظروفه القهرية، فسقطت أقنعتهم التي كانوا يتعاملون معك بها قبل وفاة أمك، وصاحب الدكان محماد لم يعد يتعامل معك، وأحرق أمامك دفتر الحساب، فسامحك وليس من أَجْل سواد عيونك، وإنما من أَجْل معاملة والدتك الحسنة، فأنذرك بألّا تقف أمامه مجددا، فكسرت له زجاج الواجهة الأمامية للدكان، ولم يعرك اهتماما، فتعديت حدودك، ومن يتعدَّ حدود غيره فليس جديرا بالاحترام، فأصبحت من العناصر غير المرغوب فيها في حيك، وتمنوا لك السجن والموت تحت عجلات قطار، فأصممت أذنيك خوفا على حياتك البائسة، وأحيانا تصيح بداخلك: السجن أحب إلي من العيش في ظل هذه الظروف القاهرة، لا عمل ولا ثروة تركها الأب، فأبوك كان معدوما فقيرا فأورثك الشقاء، أحيانا تتذكره بحزن وتترحم عليه، وأحيانا تنبذه وتنتقده على غفلته، فأنت مغفل، فالأب مات مُنْذُ زمان، فماذا تريد منه؟ والأمل الوحيد في أبيك هو أنّه تركك صحيحا، فاستعن بساعديك تكن أنفع لنفسك، وانسَ كل ما فات، فرغم بحثك المتواصل

لم تجد عملا يليق بك وبمستواك الدراسي، وتذكر صديقه عصام، وذكريات العمل في الورشة وكيف تسبب في طرده.

وطافت به صورة رئيس الورشة الذي طرده فلعنه في سره، وأغمض جفنيه، والسكرتيرة نحيلة الجسم الشبيهة بالقلم الذي تدون به أسماء العمال، فطرد تلك الصور من خياله وتمتم:

- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

وطمأن نفسه المهتزة بِأَنه سيجد عملا، أو يمتهن تجارة أوفر ربحا، واستولت عليه رغبة في أن يغادر غرفته الكئيبة، فأخرج رأْسَه من النافذة مستطلعا توقفَ الأمطار، ولبس معطفه القديم، وخرج متجها صوب المقهى، واخترق مدخل السوق الأسبوعي، ومال بجانب سور مدرسة الفارابي، وحيدا يمشي في الطريق فالكلُّ مختبئ في منزله أو عمله، وحذاؤه قد تبلل ولا يملك سواه، ونعلاً بلاستيكياً، فندم على خروجه في هذا الوقت، حَتّى المظلة لا يحملها معه، وسارع بخطواته الثقيلة، وتسلل إلى المقهى اتقاء البرد والمطر، وجلس في مكانه المعتاد، وبعد أن وجده فارغا، اتّضح له أنّ المقهى مليء بالروّاد، وبالكسالى من أمثاله من لاعبي الكارطة، فصفق بكلتا يديه إيذانا بحضوره فعرف النادل مراده، فتعالى ضجيج في المقهى من لاعبي الكارطة فتمتم في داخله:

- لم يجدوا شيئا يعملونه..

ولكنه تعاطف معهم لأنه منهم، فكيف له أن ينسلخ من ثوبه، وهو يرتدي ثوبهم وهو ثوب البطالة، وجاءه النادل بقهوته السوداء المفضلة،

وأعطاه سيجارة، وراح يدخن، ويرشف رشفات متتابعة من قهوته، ورفع بصره إلى تلفاز مثبّت يشاهد النشرات الإخبارية التي تبث من قناة الجزيرة، وراح يتابع من خلال ذَلِكَ أخبار العالم وخاطب نفسه مستهزئا:

- أخبار، هو ما لي فيا أَنَا.

بينما الأمطار تتهاطل بغزارة، وهو يتابع سقوطها من خلال النّافذة الخارجية، ويتأمل هذا المنظر الطبيعي، وتناهى إلَيْهِ صوت من ورائه مخاطبا:

- شتاء هادي.

فرد عمر قائلا:

- مولاها ربي.

فحاول الآخر أَن يدخل عمر في حديث مطول، فهو لا يعرفه، ولكن يراه في المقهى فضحك وهو يقول:

- هاد الشتاء رها كتخسر الفلاحة..

فرد عمر قائلا:

- مالي؟ أملك الهكتارات حَتّى أكره الشتاء؟

قال ذَلِكَ عمر محاولا أن يغلق باب الحديث، وساد بينهما الصمت وغرق كل واحد منهما في أفكاره ومشاكله وتمتم عمر بداخله:

هذا كيفكر في الفلاحة، وأنا باغي نخلص الكراء أو نضبر على خدمة.

الفصل الخامس عشر

- مالك، عمر! شفتك مقلق؟
- ياك ما تعرضو لك شفارة ذَاكَ نهار لي شربنا؟
- لا...

وقد لمح عصام أثر قلق بادٍ عليه، وليس أول مرة يراه هكذا، بل مرات، ولكن ليس بمثل هذه الحال، بل شيء يكدر سريرة صديقه عمر، الضحك الذي عهده فيه عصام لم يبق، وروح الدعابة ذهبت، وحل محلها الغضب والمقت والكراهية للناس.. حديثه متقطع، وذهنه مشتت. مَاذَا به اليوم؟

هكذا وجده عصام مُنْذُ أن دخل المقهى، وجده متجهما كئيبا غارقا في مشكلة من مشاكله التي لا حصر لها، وهو يدخن بعصبية، ويقبض على قهوته السوداء بعنف، فأفرغها في جوفه، وتلاها بكوب من الماء.

ولم يقدر عصام أن يبقى منتظرا هكذا، فهو أراد أن يعرف مَاذَا يدور بخلد عمر، وإلى متى سيبقى صامتا، وتشجع مرة أخرى فسأله:

- عمر مَاذَا بك؟
- عمر.....

بَدَأَ عمر يتحدث بصوت غير مسموع مع نفسه، وهو يسب.. وتراءت في عينيه نظرات الشر، وسمعه عصام يتكلم:

- الله ينعل صحاب الإنعاش..

وساد الصمت، فلزم عصام مكانه ينتظر، ويترقب ما ستسفر عنه الدقائق المقبلة، ولم يصدق ما يرى.

فتبين لعصام أن عمر قد وقع في مشكل ما لا يعالج بالقوة وإنما بالصبر، واضطر عصام، تحت نظرات عمر المخيفة، أَن يصمت.

وراح عصام يتساءل في مخيلته: إِلَى متى سيبقى هكذا صامتا؟

مر الوقت وهو ما يزال على تلك الجلسة المتجهمة لا يتكلم، ولا يلتفت يمنة ولا يسرة، واجتاحت جليسه غمة من الكدر.

وألحت أسئلة متتابعة في رأس عصام: هل أصيب بجنون؟ أم شرب دواء لم يوافقه؟ أم مَاذَا.....؟

ساعات مرت، وظل عمر بونظيف حليفا لصمته المطبق، وهو لا يبالي بصديقه وأسئلته المتكررة، وعصام ينظر إِلَيْهِ، وتمنى لو انشقت الأرض وابتلعته، ولن يبقى هكذا يتفرج على صديقه الذي ربما قد أصيب بأزمة نفسية أو غلبه الدهر، والأسئلة تراود خاطر عصام، ولكنه مطمئن بِأَن تنفرج هذه الأزمة عن صديقه ويعود إلى حالته العادية، ونفد صبر عصام وقال صارخا:

- واخا يكونو مشاو ليك باطوات..

فندت عن عمر نحنحة وتمتم:

- أَكْثَرُ من باطوات..

فتنفس عصام لهذا الجواب بعدما رد عليه، وخرج من جموده وقد رأى ابتسامة متصنعة من صديقه فاتكأ بيده على الطاولة متسائلا:

- ما المشكل؟ مَاذَا وقع لك؟
- احكِ لي...

وطلب عمر من النادل أن يأتيه بكوب من ماء، وراح يمسح أنفه بمنديل صغير، فتمتم:

- الوقت مزيرة.....

فتساءل عصام:

- كيفاش مزيرة؟
- أو مالك ما عارفش؟

فرفع عصام صوته قائلا:

- لا أعرف شيئا.

فقطب عمر عابسا، ثم قال:

- الشهر لم يبق له سوى يومين.
- أي شهر؟

فأجابه عمر بغضب:

- واجب كراء الغرفة.

فجاء النادل بقنينة ماء وكأس زجاجي، فدفعهما فوق الطاولة، وانصرف النادل ومن أعماقه يتمنى ألّا يراهما، فهما يزعجانه ولا يتركان له بعض الدريهمات، وملأ عمر كوبا وأفرغه في جوفه في حين ينظر إلَيْهِ عصام، ثم سأله:

- أليس لديك نقود؟

فأجاب عمر:

- لا..

فقاطعه عصام قائلا:

- الحساب الذي قبضته من الورشة؟

فعبس عمر وهو يقول:

- لم يبق منه إلا ما سأتدبر به المأكل والمشرب..

وتفرس عصام في وجهه قائلا:

- بذرت كل شيء.... يجب أن تعمل ألف حساب، حَتّى يمكنك أن تخسر درهما، فأنت تعرف بِأَنك مسؤول عن أداء واجب الكراء، وأصحاب الغرفة لن يتنازلوا لك..

فتمتم عمر قائلا:

- الله يرحمك الوليدة.

متذكرا أمه وهو يدعو لها، فكانت تؤدي نيابة عنه أجر الكراء، ومصروف الأكل والشرب، وتمنحه النقود، وجارتهم الضاوية صديقة أمه وصاحبة المنزل التي توفيت، كانت أحيانًا تسمح لهم بالتأخّر في أداء واجب الكراء حينما تشتدّ الحال على أمّه. ولكن ما أن تنحى وجهها، حَتّى بَدَا له وجه أبنائها الحقيقي، فعرفهم فهم لا يتنازلون عن آخر درهم، فبدأ يتذكر أشياء جميلة، وراح يقول:

- إلا خطاوك الوالدين بقيت عرضة للتشرد.

فتناول عصام سيجارة وهو ينفث دخانها في سقف المقهى، ويهز رأْسَه بإيجاب، ولكن كيف ستوفر ثمن الإيجار؟

فقال عمر:

- بالأمس زرت مكتب الإنعاش الوطني فلم أجد سي إدريس. وجدت سكرتيرة قالت لي: اذهب إِلَى الغد وارجع، فضحك عصام قائلا:
- صحاب إنعاش كيضحكو على بنادم..

فتكلم عمر بثقة وقال:

- أَنَا أريد أن أوفر ثمن كراء الغرفة..
- عصام أعرب عن تفهمه لموقف عمر بتحريك رأْسه..

فهو لم يرد سوى أَن يضمن لنفسه لقمة العيش في هذه المدينة، وتأدية واجب الكراء لا غير، فكيف له بهذه المسؤولية، وهو عاطل مُنْذُ أَن تم طرده من الورشة، وهمه الوحيد هو العيش، وروحه قانعة راضية بما قسمه الله، ورغم أنّه لم يؤدِّ الصلاة إلا نادرا، أيام الجمعة، إِذَا اصطحبه صديقه الحسين العسكري، فعمر كان شخصا وديعا، طيب القلب، فهو شاب مسالم، وكم من مرة تعرض للسب، ولكنه يسامح من أخطأ في حقه، وهو الآن يسامح الحظ لأنه أخطأ في حقه أَكْثَرَ من مرة، فهو يعتبر نفسه غير محظوظ، ولم يحتفل بعيد ميلاده ولو مرة واحدة، فهو يحسب يوم ولادته يوم شؤم عنده، ومرات قالوا له: أَنت لم تخلق، ولم تلدك أمك، ربما سقطت من كوكب آخر، فاستغرب لتلك الأقوال، وراح يقول ذَلِكَ ظاناً منه أَنه لم يخلق مثل الآخرين، ولكنه نسي أقوالهم،

فسار على طريقه غير مبصر لما سيقع في القادم، وأحيانا ينتابه غضب، فيسب وجوده فوق هذه البسيطة، ولكنه يرجع إلى الله، ويستغفر لأنه يعرف بِأَنه توجد الجنة والنار، ويخزي الشيطان، وتمنى لو ألقِيَ القبض على هذا الشيطان الذي يوسوس للناس لَسحقه، ولن يترك له أَثَرا وسيبقى الناس يعيشون في سلام، ولكنه يصطدم بالواقع فيعرف بِأَنه اختبار من الله، من نجح فيه فمصيره الجنة، ويمني نفسه بالجنة وأن يكون من زمرتها، لأن قلبه غير مليء بالحقد فالله عليم بذات الصدور، وعلاقته بأبناء الحي علاقة جافة لا تتجاوز حد التحية، فقد كانت تجمعه بهم رابطة لعب أيام الصبا، وبعد وفاة أمه السند والدعم، عرف نفسه بِأَنه بقي وحيدا، ولا يمكنه أن يلعب معهم لعبته المفضلة، الكرة، فالمسؤولية ملقاة عليه وشبح المستقبل يخيم عليه، فكيف يتأتى له أَن يلعب في ظل هذه الظروف الصعبة التي يواجهها وحده، فلا عائلة لديه ستخفف عنه بعض الأعباء، فهو آخر جذر بقي من عائلته فوق هذه الأرض، يجب أن يتناسل، ويخلف ذرية حَتّى لا تنقرض سلالته النادرة، أحيانا ينتقد نفسه بمرارة وسخرية، ولكن النفس أمارة بالسوء، فيحزن ويلملم جراحه التي لا تندمل، فيثور هيجانه حينما يشتد به الغضب، ويسكت غضبه ويختلي بنفسه متفكرا في قلق وكدر، وفي الأخير يعود إِلَى صفائه، قانعا بما رزقه الله، فحمد الله على نعمه، ومنذُ وفاة أمه وهو يخرج، يشمر عن ذراعيه بحثا عن عمل يقيه ضربات الزمان المتوالية،

وهو يفكر في أي طريقة يمكن أَن يجلب بها الدرهم ولو بالنصب أو السرقة، المهم عنده حالاً توفير ثمن الإيجار.

ورطة، وأي ورطة هذه، ثمن الإيجار صعب عليك، فشعارك اليوم: كل شيء يهون من أَجْل درهم.

بينما رواد المقهى غارقون في مشاهدة إحدى مباريات كرة القدم، فأزعجوه بتشجيعاتهم وصراخهم الذي يصم الآذان، فحمل كرسيه الذي كان يجلس عليه، فتبعه صديقه عصام، واتخذا مجلسهما بعيدا عن ضجيج متتبعي الكرة خارج المقهى وتمتم عمر بصوت مسموع:

- الكرة ذهبت بعقولهم.

واعترض عصام قائلا:

- الكرة هواء الشعوب، والهواء الذي يتنفسوه..

فأومأ عمر برأْسه إيجابا..

فقال عصام جادا:

- يجب أن تجد طريقة لتوفر بها المال.

فصمت برهة، وراح يفكر: هذه هي الحياة، تكدح وتجمع قليلا من النقود فتعطي البعض منها لصاحب الغرفة، والبعض الآخر يذوب في... المقهى... المأكل... السجائر، وسب من أعماق قلبه صاحب الغرفة، وتمنى له الكساح، فكيف يتأتى له أن يقبض منه الإيجار، وهو في أزمة يجب أَن يصبر عليه ولو لأسابيع.. لا.. فصاحب الغرفة لا يرحم، والدليل على ذَلِكَ فالشهر الماضي حينما سددت ثمن الإيجار، ولم تتبق لك سوى

بعض السنتيمات لم يرحمك ولم يقدر ظروفك، فيجب أن تخرس فم صاحب الغرفة بتسديد ثمن الإيجار في وقت محدد، وبدون نقص أو زيادة، وتذكر أمه وتوبيخها له والدرس الذي لقنته له ذات يوم بعدما اقترض خمسة دراهم عند محماد، صاحب الدكان ولم يسددها له، فأنذر أمك، ووبختك وأعطتك مثالا في المعاملة، وحفظته عن ظهر قلب وما زلت تتذكره (هاك وارا مافيها حزارا). فعليك أَن تطبق تلك النصائح بحذافيرها..

وبعد تفكير طويل، اهتدى إلى طريق لا ينفذ منه سوى اللّصوص والمجرمين، فأراد أن يخبر صديقه عصام بالفكرة، ولكنه خاف من أن يعترض طريقه، وبعد تردد، همس في أذنه قائلا:

- الحل وجدته...

فراح عصام متسائلا:

- مَاذَا؟ ما هو الحل؟

- هل...

فرد عليه عمر بصوت خافت:

- تلك الدراجة النارية الواقفة، سأسرقها..

فتمتم عصام:

- إِذَا كنت قادراً على سرقتها.

فقال عمر راجيا:

- يجب أن تساعدني..

ومال نحوه عصام قائلا:

- المساعدة التي سأقدمها لك: إذَا سألوني، لم أرَ سارقا.

فعبس عمر وقال:

- قليل على من ستعتمد..

فندت عن عصام سخرية خافتة، وقال:

- اعتماد حَتّى في السرقة..

فأوحى له الشيطان بحل جهنمي، سرقة دراجة نارية لأحد رواد المقهى المشغول بمتابعة مباراة في كرة القدم، فالتفت عمر يمنة ويسرة، وصوب نظره إلى داخل المقهى، فرأى أعينًا مسمرة في التلفاز، وأعناقاً مشرئبةً، وقلوبَ المشاهدين تهتف بالنصر لفريقهم المفضل، هذه هي الفرصة، يجب انتهازها، ولكن نصر عمر كيف سيكون؟ وكيف سيمر؟ ضمير أخلاقي ذَهَب، فذهبت معه كل التعاليم التي تلقاها في المدرسة والمسيد، ونصائح الأم تدغدغ مسمعه، وشبح السجن يتراءى له، والذي يوسوس للناس يزين له عمله، ويشجعه فالسرقة حلال في وقت الشدة، إن لم تسرق، فمصيرك التشرد، وأين ستقضي أيام الشتاء والبرد إن لم توفر ثمن إيجار الغرفة بالسرقة، هل ستفترش الأرض وتلتحف السماء؟ وصورة صاحب الغرفة تتراءى له كشبح الموت، الإفراغ، القوات العمومية، وهي ترمي ملابسه، وهو مطأطئ الرأس، تخيل كل شيء، إذن ستصبح من عداد المتشردين، وسيعمك إحصاء ساكنة الأرصفة، تشجع، فالشجاعة هي التي تنقصك، والنصف من أمثالك يعيش على

السرقة، ولتكون بداية موفقة، وصدرت من القهوة صرخة جماعية من المشاهدين بإحراز فريقهم المفضل هدف الفوز، وتزحزحت الطاولات، وسمع صوت كَأْسٍ وهو يرتطم بالأرض، وقام عمر من مكانه، فتجاوز الكراسيَّ الموضوعة في الخارج. ثم سار إلى مكان الدراجة، ووضع يده متحسسا قبضة مقودها، وتلفت يمينا ويسارا، ونظر أمامه، ووجد العيون مثبتة في التلفاز، وتباطأ عندما لاحظ النادل وهو يمسح الطاولة التي كان يجلس عليها، ويجمع الكؤوس الفارغة، وراقبه حَتّى اختفى عن نظره، ثم استقرت عيناه على الشارع فهو خالٍ من المارة، وتأكد مرة أخرى بعد أَن أجال بصره في جميع الأركان، وتفقد كل شيء، حتى لا يعترضه أي شخص ويقف أمامه حجر عثرة، وجر الدراجة من مقودها، وسار ببطء.. الكل مشغول بالمباراة، والكل يمني نفسه بفوز فريقه، وتقدم إلى الأمام وسار ملتصقا بجنب الحائط، وهو يدفع الدراجة بحركة طبيعية، دون أَن تصدر منه أي حركة توحي بِأَنه سارق، ومال على يمينه، والتفت، وقلبه يخفق ثم مرت بجانبه ثلاث نسوة، فتفحصهن بعينه الثاقبة متوجسا من أَن تكون واحدة منهن زوجة صاحب الدراجة، وتابعن طريقهن فتجاهلنه، البداية الأولى ناجحة، ولما تأكد من خلو المكان، اندفع يجري بالدراجة وارتمى على مقعدها راكبا، فزاد من سرعتها وهو لا يلوي على شيء، والتفت التفاتة أخيرة، فتراءت له الطريق خالية، وتنفس من داخل أعماقه بعد دقائق من شقاء الحواس والأعصاب.

الفصل السادس عشر

تحسنت الحالة المالية عند عمر ، وأصبح ينفق بلا حساب، ودفع إيجار الغرفة التي يكتريها عند أبناء الضاوية، فأحس بالراحة، لأنه لن يُطرد من الغرفة، وسيظل يحتمي بها من الأعين. ولكن قلبه يضطرب، والأفكار أنهكته. ارتدى ملابس جديدة بعدما اشتراها من أحد محلات بيع الملابس الجاهزة، وغادر الغرفة بعد العصر، وهو متوجس وخائف، كل خطوة يخطوها يلتفت وراءه، وتشنجت أعصابه، وسرت في جسمه رعدة، اضطرب لها بدنه؛ ما إن يمر أمامه رجل أو امرأة إلا ويتفحصه ظانّاً منه أنّه قد رآه حين سرق الدراجة. رويداً رويداً، بَدَأَ يعود إلى حالته العادية، ومشى مشية طبيعية، وتوقف عن السير أمام كشك بائع الجرائد، فأخذ جريدة، وأدى ثمنها، وقلب صفحاتها بسرعة، وتأبطها. وباقترابه من المقهى فقدت خطواته كثيراً من الحركة، فالتف على نفسه، ودار على يساره بسرعة فائقة، وصعد مع الشارع الخلفي للمقهى، من حَيْثُ ركب على الدراجة، وسار حَتّى بلغ المسجد العتيق بالقرب من دار الشباب، وقطع الطريق متجهاً إلى قهوة جديدة أخرى، فدخل وألقى نظرة خاطفة إلى الداخل، أخذَ كرسياً عن يمين أحد الأعمدة وجلس. فأقبلت عليه نادلةٌ صغيرةُ السنّ، قصيرةُ القامة، مكتنزةُ الجسم، نهداها متدليان، تتدفق الحمرة من وجهها الطفولي، فهي مرحة تنتقل بين الزبائن، تلبي

طلباتهم برشاقة وحيوية، فهت عمر لجمالها، وتسمر في مكانه صامتاً جامداً لا يلتفت إليها... حَتّى فاجأه صوتها الأنثوي اللطيف قائلًا:

- أش حب الخاطر أخويا؟

كلمة "خويا" لم يسمعها من قبل، حَتّى من صديقه عصام، الذي يشاركه الأكل والعمل وحتى الخمر. فطيلة حياته لم يسمع من فمه كلمة "خويا"... ورنا إِلَى شفتيها المحمرتين قائلاً:

- قهوة سوداء...

رغم تكور اللحم على أردافها وثقل جسدها، انتقلت بسرعة تلبي طلب عمر، فغابت برهة، وعادت حاملة صينية عليها بعض المشروبات للزبائن في الرصيف الخارجي، فوضعت أمامه قهوته السوداء وتمتمت:

- بصحة...

فأخرج من جيب سرواله علبة سجائر مارلبورو، وأخرج منها سيجارة، ووضع العلبة فوق الطاولة، فراح يدخن، ويراقب المارة، عسى أن يجد صديقه عصام عابراً، فراح يحول عينيه من اتجاه إِلَى آخر كأنه رادار رصد لا تفلت منه صغيرة ولا كبيرة. ففتح الجريدة، وبعد أن اطلع على مضامينها، بَدَأَ يقلب صفحاتها، واحدة تلو الأخرى، ولم يجد موضوعاً مسلياً، وحينما يرى شخصاً يشك فيه يدفن رأْسَه في الجريدة.

كان عمر جد محتاج إِلَى مكان آمن يرتاح فيه من عذابات النفس والضمير، وما زالت ظلال سرقة الدراجة تفسد عليه جلسته في المقهى، فهو سرق سرقات صغيرة، وليست بهذا الشكل، فراح يتساءل مع نفسه: كيف واتته الشجاعة تلك الليلة أَن يسرق دراجة؟ فبدأ يسترجع الأحداث واحدة بواحدة. ها هو الآن يجلس في المقهى هرباً من الوحدة في الغرفة، ولبث يحملق في المارة بعين خبيرة، ويتفرس في وجوه رواد المقهى بطريقته الخاصة، ويتلصص النظرات من وراء الجريدة، في حين تفرق نفر قليل من رواد المقهى، يحتسون الشاي، ويشربون عصير الفواكه، ويتداولون مشاكلهم اليومية التي لا حصر لها. في ظل ذَلِكَ يجلس شخصان بعيدان عن مجلس عمر، يتكلمان عن السرقات التي طالت المدينة هذه الأيام، فمنزل فلان تعرض للسرقة، وسيارة فلان سُرقت، فما إن نطق الآخر بِأَن دراجة نارية سُرقت بالقرب من أحد المقاهي، حَتّى سرت في جسمه رعدة، فراح عمر يسترق السمع، وتضاعف إحساسه، فعرف من خلال ذَلِكَ بِأَنه هو محور الحديث الدائر، ولكنه عاد إلى هدوئه النفسي نسبياً، وكاد أن ينسى حديثهما، فهما لم يروه حين سرق، ولا حين فر، فهم يسمعون عن السرقات التي طالت المدينة، ويلوكونها فلم يجدوا شيئاً يتسلون به سوى ذَلِكَ. فترامى إِلَى أذن عمر مقطع من الحديث بين الشخصين حينما قال الآخر لصديقه:

- يجب أن تُقطع يدا من ضُبط يسرق.

فرد عليه الآخر قائلاً:

- يعني سيصبح عندنا مجتمع مقطوع اليدين؟

فتمتم عمر داخل أعماقه:

- يجب أن تقطع يد من يأكل أموال اليتامى ومن لا يزكي.

وما أراد عمر من هذا القول إلا أن يبرر سرقته بدعوى أنّه يمرّ بضائقةٍ ماليةٍ ويحتاج إلى المال، فرأى في السرقة وسيلة للخروج من أزمته المالية، كما ترى الدول الإمبريالية الاستعمار وسيلة للخروج من أزماتها، فأقدم على السرقة.

فتناول كَأْسَ قهوته، فأفرغه في حلقه، وقام واقفاً بعد أن طوى جريدته، ومد عينيه إلى داخل المقهى، فصفق بكلتا يديه، فجاءت النادلة مسرعة، فأدى ثمن قهوته السوداء، وترك للنادلة الباقي عربونَ إعجابٍ. وخرج حانقاً على الشخصين اللذين لم يجدا وسيلة لتمضية الوقت، سوى النبش في سجلات اللّصوص، وإصدار أحكام سريعة في حقهما، ولم يعرفا مغزى سرقاتهم، فتوارى عن أعين رواد المقهى وغاب.

تمت

دار تسراس للنشر والتوزيع
Éditions Tisrasse
2019 ©
الهاتف : 0528220198
البريد الالكتروني :
editiontisrasse@gmail.com
مصلحة التوزيع
distributiontisrasse@gmail.com
محاولة بقاء / رواية
Ref: 2019/23
ISBN : 978-9954-9708-3-6
www.facebook.com/editionstisrasse
www.editionstisrasse.com

وبعدما تمّ طرده من العمل، أصبح بلا عمل وبلا أجر!
كانّ يمشي في الشارع صباح ذلك اليوم، وكان يحسّ بأنّ نقصا ما قد لحقه ويشعر بإحساس غريب، فقد كانت تنتابه مجموعة من الأفكار المضطربة والقلقة، لا يعرف بالذات مصدرها، وكانت تفسد عليه هذه المشية الصباحية غير المعتادة.

كان يتمنّى في أعماقه لو أنّه لم يكن موجودا على هذه البسيطة، أحسن وأرفع من العيش في متاهاتٍ لا حصر لها وأحلامٍ لا حدود لها.

ها هو يمشي كالناس، عاقلا يعرف بالضبط ما وقع له، ومتذكّراً ما حدث بالأمس من طرده.

كلّ ما وقع له يقع في كلّ يوم للعمّال مثله، وما عليه إلا بدءُ صفحة جديدة من حياته، ويجب أن يجد عملا محترما وشريفا يليق به، يجب أن يعيش مثل الناس وأن يطرد من رأسه تلك النزعات التي قد تؤذي به في أيّ لحظة إلى الهلاك.

لا تنسَ يا عمر أنك شابّ وعاقل، ومن أمثالك من يملكون أبناءُ وثروةٌ ومنزلاً، عليك أن تجتهد بكذّك فكلّ شيء ممكن.

دار تسراس للنشر والتوزيع
ⵜⵉⵙⵔⴰⵙ ⵏ ⵜⵙⴳⴰⵡⵉⵜ ⴷ ⵜⵖⵣⵡⵉⵔⵉ
EDITIONS TISRASSE

editiontisrasse@gmail.com
fb.com/editionstisrasse